الدّيبة

عبد الواحد استيتو



-نوفيلا-

تصميم الغلاف : مقداد حجاج

لا شيء يحدث. لا أحد يجيء ولا أحد يذهب.

صباح حيّ "كاسابارطا" يتنفّس أخيرا، مؤذنا بيوم جديد، لكن بنفس الوجوه ونفس التكرار. تستنسخ الأيام بعضها هنا دون أن تتغيّر.

في الصباح نوم وهدوء، وفي الليل كثير من الضجيج، وبعضٌ من الشجار على سبيل التسلية. ماذا يمكن أن تقدّم الأحياء الشعبية بمدينة كطنجة غير ذلك؟

ربّما بعض الذكريات الجميلة. في الواقع، الكثير منها. الطفولة هنا ماتعة، مسلّية، ضاجّة، مكتظّة بالحياة. لكن، بعد أن تنتهي مرحلة المراهقة، بسلامها وحربها، وتأتي مرحلة الشباب، يبدأ الفراغ المطلق مثل الذي أعيشه الآن.

- ليلى.. أريد الخروج للعب.

- لا.. لا يمكنك ذلك الآن.. لا وقت لديّ لمراقبتك..

- أرجوك !

- مستحيل.. تعال خذ هاتفي إن شئت لكن لا لعبَ في الحيّ هذا الصباح !

الحياة بالنسبة لأخي الصغير أيمن لعب ولهو.

تركته أمي معي وذهبتْ لتعارك الحياة كما تفعل كلّ يومين أو ثلاثة. هناك في معبر "باب سبتة"، حيث عليها أن تعبُر بسلعٍ مهرّبة من تراب مغربي، أصبح محتلاً للأسف، نحو تراب مغربيّ لا غبار عليه.

أحاول ألا أتخيل ماذا يحدث هناك وألا أسألها عن التفاصيل. لم أصل يوما لذلك المكان لكنني شاهدت ما يكفي من خلال الصحافة المحلية والإسبانية أيضا.

إنهنّ ينتزعن قوت يومهم من بين فرثٍ ودمٍ رزقاً سائغاً لليتامى، مثلي ومثل أيمن. يتدافعن، يصرخن، بل ويُضربن أحيانا، كي يستطعن أخيرا تمرير تلك السلع، والعودة برزق اليوم دراهمَ معدودة.

أحاول أن أبعد عن ذهني كل هذا متظاهرة بأن كل شيء على ما يرام. عندما تنام والدتي وأدثّرها ليلاً أتفحصها ملمتراً ملمتراً لأتأكد أن جسدها الطاهر لم يمسسه سوء.

صوت الهاتف يرنّ. أسمع صوت خطوات أيمن الصغيرة وهو يعدو نحوي. أزيح ستارة الغرفة وأستلمه منه.

- صباح النور بشرى..

- أيّ صباحٍ يا ليلى؟ إنها الواحدة زوالا..

- صباحنا نحن الطنجاويات والطنجاويين هو هذا كما تعلمين..

- لا نختلف عنكم في تطوان كثيرا، لكننا نقرّ لكم بالرّيادة..

- هه.. ما الجديد؟

- لا زالت النتائج لم تظهر بعد..

- هل ما سمعتُه صحيحٌ بخصوص ضرورة دفع مليونيْ سنتيم كي يتم قبولنا في هذا الماستر؟

- طبعا هو صحيح.. كل شيء له ثمن هنا.. لكن من أين لنا بها نحن الكادحات؟ نحن فقط نأمل أن نعبر

– كجَملٍ – في سَمّ الخياط..

- الله عليك وعلى تعبيراتك.. عموما وافيني بأي جديد.. مع السلامة..

- في أمان الله..

لم أتفاجأ عندما وصلتني أخبار تفيد أن هناك من يقبضُ رشاوى من أجل القبول في الماستر. كلّ شيء أصبح يباع ويشترى، فلم لا الشهادات والقبول فيها أيضا؟

صوت طرقٍ على الباب..

إنه صاحب البيت من جديد. يقف متكّئا على جانب المدخل بيده، في حركة جسدية توحي بثقة مشوبة ببعض التهديد، ولسان حاله يقول "إن لم تدفعوا ما عليكم من مترتّبات الكراء فسأطردكم".

يتنحنح ثم يسأل:

- الوالدة ليست هنا؟

- لا.. إنها في سبتة اليوم..

- لن أطيل في الحديث إذن.. أخبريها أن هذا آخر إنذار شفوي.. بعدها سأمر لمرحلة المحاكم.. فرجاءً لا تدفعوني إلى ذلك..

أومئ برأسي دلالة على أنني فهمتُ وتفهّمت. ينقبض قلبي. أكره هذه اللحظات وأكره أن أدينَ لأحد بشيء. ما أمرّ الحاجة إلى الآخرين.

حاولتُ ما أمكن أن أجدا شُغلا لأتشارك مع والدتي تحمّل عبء المصاريف، لكن دون طائل. أصحاب العروض يريدون منك أن تمتلكي خبرة. لكي تمتلكي خبرة عليك أن تشتغلي، وهكذا.. دائرة مفرغة لا تنتهي.

عزيزتي ليلى،

هاهو ذا دولاب الحياة يعود للدوران من جديد، حاملا معه - في كل دورة- مفاجآت وإحباطات وانتصارات لا تنتهي .

إنها السابعة صباحا الآن في برشلونة. هناك ديك مبحوح يصيح في الجوار محاولا أن يذكرنا أنه وأقرانه لا زالوا هنا لا يعبئون بمنبهاتنا السخيفة. السماء غائمة كما العادة.

الشمس – تلك الخجول - لا تظهر إلا لتعود للاحتجاب من جديد خلف السحاب المسخر بين السماء والأرض.

اتفقنا أنا وحسن أن نتناوب على إعداد الشاي ما دمنا مدمنين عليه نحن الاثنان. لا بد من الشاي الأخضر المُنعنع كي يصبح المزاج رائقا والذهن صافيا، هذه "فطرة" طنجاوية لا مناص منها.

وها أنذا أرشف الشاي الذي أعدّه حسن. نعم، إن له مذاقا كالحذاء. لكنه شاي على أية حال.

لا أدري سر الرغبة التي تنتابني في الكتابة لك كلما أمسكت كأس شاي بين أصابعي. لَكَأنّي بالذاكرة تعود، دون إرادة منّي، إلى طنجة كلما حدث هذا، فأجدني مضطرا للاستجابة للرغبة الملحة في الكتابة لك على وجه الخصوص.

البارحة شاهدنا نحن الثلاثة برنامجا عن رومانيا. كانت واحدة من تلك اللحظات التي تشعر فيها أنك ممتنّ بشكل ما للعالم كله، وبأنك تريد أن تشكر فلانا، وتمدح علاناً. على ماذا؟ ليست الإجابة مهمة على أية حال.

كان برنامجا فرنسيا يحكي عن تاريخ رومانيا ويعرض مشاهدَ من الحياة اليومية هناك.

طبعا، لم نسمع شيئا ولم نر شيئا، فرفيقنا الثالث في السكن، الروماني "دانييل" لم يكف عن الصراخ والقفز بحماسٍ، وحجب التلفاز بجسده، فقط كي يرينا أنه يعرف هذا الشارع وأنه قد مر من ذاك المكان مرات عديدة.

كان صوته متهدّجا وعيناه جاحظتين وهو يحاول أن يبدو بمثابة الرجل العارف بتفاصيل وطنه. ورغم أننا حاولنا إقناعه أن مشاهدة ظهره وأصابعه لن تجعلنا نحب رومانيا إلا أنه لم يلتفت إلينا.

كان يقوم بحركات جعلتنا نذرف دمعا أنا وحسن من كثرة الضحك. إن أبناء الوطن الواحد يضحكون لنفس الأشياء حتما.

دانييل كان يتوقف لثوان أحيانا وينظر تجاهنا في ارتياب، ثم ما يلبث أن يواصل القفز والصراخ متخليا عن برودة دمه المألوفة.

عندما انتهى البرنامج كانت عضلات بطني تئن تحت وطأة الضحك. حسن أيضا شعر بنفس الشيء. أخيرا ، هدأ دانييل وعاد إلى مقعده وهو يلهث.

قلت لدانييل إن رومانيا رائعة بالفعل، وإن المشاهد التي رأيناها لا مثيل لها.

لم يبدُ عليه أنه اشتمّ رائحة التهكم في حديثي إذْ أجابني أن العالم كله رائع، فقط لو يغادره الأوغاد ليعيشوا في المريخ ويتركونه وفارسة أحلامه كي يهتما بهذه الأرض ويعرفا كيف يجعلانها تحبهما.

قال له حسن في صراحة ألِـــفها دانييل:

-أنت رقيق كفتاة يا دانييل، وأحلامك سخيفة حقا. إن أي طفل من حيّنا في طنجة قادر على التعامل مع الحياة بواقعية أكثر. وإني لأراه بعين الخيال يصفعك ولا تستطيع الرد عليه.

ابتسم دانييل في استخفاف وهو يهز رأسه يمنة ويسرة أسفا على غباء تعوَّده من الآخرين:

-أعرف أن الرجل بالنسبة إليكم هو ذاك الشخص الذي لا يكف عن الشجار والبصاق والسباب دون سبب، والذي لا ينطق بكلمة واحدة لطيفة. لكنني أدرك جيدا ما أفعله ولا يهمني أن ترضى عني أنت. أنا أسمع الموسيقى الهادئة ، وأبكي متى عنّ لي البكاء، وأميل إلى الرومانسية، وأهتم بأخبار الموضة، ولا أرى أن أي شيء مما ذكرت ينقص من رجولتي. الرجولة في نظري هي الالتزام بالكلمة، الصدق، الوفاء .. وأشياء أخرى قد لا تفهمها بنظرتك السطحية.

لم أحاول أن أرد أنا، ونظرت إلى حسن نظرة ذات معنى وقد أسعدني أن النقاش بين الاثنين قد يكون مسلّيا بالفعل. لكن حسن كعادته كان مُحبِطا إذ قال وهو يرمي ورقة كورها بيده تجاهي:

- إن الرجولة في نظري هي أن أذهب للنوم كي أستيقظ قبل السابعة صباحا غدا لأغسل ثيابي وأعد الشاي لي ولهذا الطفل الوديع الذي تراه أمامك، ثمّ أذهب لعملي الذي أكرهه مثلما أكرهكما معاً.

ولم يكن دانييل أكثر حماسا إذ بدا لي أنه قد شرد بفكره بعيدا. ربما يحلم أنه قد سافر إلى المريخ هو وفارسة أحلامه وترك الأرض للأوغاد يعيثون فيها فسادا.

لم يبق أمامي إلا نصف ساعة ويحين وقت ذهابي إلى العمل ، وهناك طقوس لا بد منها قبل المغادرة لذا أجدني مضطرا للتوقف هنا وعداً أن رسائلي ستكون طويلة كهذه التي بين يديك.

المخلص : عبدو – برشلونة

تخفف عنّي رسائل عبدو الكثير من ضنك الحياة. تلك الروح الساخرة التي يخاطب بها العالم جعلته يتجاوز الكثير من صدماتها، وجعلتني أتعلم منه الكثير أيضا.

من مُجازٍ، مثلي أنا، في الأدب العربي إلى مهاجر سرّي في برشلونة.

هكذا نقل حياته من مكان إلى مكان، ومن وضع إلى وضع. أتذكر أنه كان يقول لي "أنا قادر على تحمّل كل شيءٍ إلا التباكي والنواح.. إنها مشاعر لا تليق لي".

شهوراً فقط بعد حصوله على الإجازة كان قد اتخذ قراره. لا يوجد عمل إذن لن نجلس مكتوفي الأيدي.

أليست أرض الله واسعةً؟ فلنهاجر فيها.

يطلق عبدو على "قوارب الموت" تسمية أخرى هي "قوارب الحياة"، وله في ذلك وجهة نظره الخاصة.

ولأنه يؤمن بذلك فعلا، فقد ركب القوارب وعاد إلى الأندلس المفقود على قاربٍ تتقاذفه الأمواج والرياح والموت.. لكنّه نجا !

ليل طنجة يتهادي قادماً معلنا بأن الحياة ليست بتلك السوء. لو كان هناك تصنيف عالمي عن أجمل الليالي لكانت طنجة على القمّة لا محالة.

بعدَ الاطمئنان على أيمن والحاجّة، أصعدُ السطح لأتأمل النجوم وأنصت لبعض الصّمت الذي لا تخدشه سوى نوبات سُباب وشجار هنا وهناك من حينٍ لآخر لسُكارى الحيّ.

تصلني رسالة عبر برنامج المحادثة الفوري من بشرى:

- هل وصلك الخبر؟

- أي خبر تقصدين؟

- تسرّبتْ لائحة المقبولين في الماستر قبل قليل..

- طبعا لسنا مقبولتيْن..

- كنت أتمنّى أن أنفيَ ذلك..

- لم أكن أنتظر أفضل.. نحنُ الذين نسير نحو آجالنا الحتمية بإصرار أحمق..

- ماذا تقصدين؟

- وسط مئات الخيارات نختار مواصلة الدراسة كأنها ستمنحنا شيئا وسط أمواج هذا البحر اللجّي المسمّى حياةً..

- فقط نحن لا نريد أن نتوقّف كي لا نموت ونحن أحياء.. وكما يقول محمد شكري "لا يقهر الموت سوى حبّ الحياة"..

الصمتُ يلفّني من جديد.

- آآآآآه..

تصلني الصرخة من داخل البيت هذه المرّة. بقلبٍ تتسارع دقاته أنزل الدرج وأنا أوشك على السقوط.
أيمن يقف ذاهلاً غير فاهم كيف لأمّه أن تتألم وتطلق كل هذه الصرخات؟ هذا الكائن وجد كي يكون قويّا ويحمي الآخرين وليس العكس.

- ماذا هناك أمّاه؟

- ألمٌ يا ابنتي.. ألم فظيع يمزّق صدري !

- كيف؟ هكذا فجأة؟ أنا لا....

أدور ببصري في الغرفة محاولة أن أجد شيئا ما لا أدري ما هو. أسقط وأنهض. أجري نحو المطبخ ثم أعود. ما أصعب هؤلاء المتماسكين عندما يتألّمون..

"الحاجّة" أطعمتنا وسقتنا أنا وأيمن، منذ توفي والدي قبل 6 سنوات، دون أن تتأوه أو تشتكي للحظة. والآن، عندما تصرخ بهذا الشكل، فهذا يعني أنها لا تتألم فقط. إن ما تشعر به أفظع بكثير ولا شك.

المفارقة أن الإعلام الإسباني يطلق على النساء اللائي يهرّبن السلع بباب سبتة لقب "البغلات" !

كبرت كلمة تخرج من أفواههم..

عشرات الأفكار تتقافز وتتناحر في ذهني وأنا أعدو في الليل البهيم محاولة أن أجد صيدلية فاتحةً أبوابَها..

أقرب صيدلية تشتغل ليلا تبعد عن حيّنا كثيرا. أستقل أول سيارة أجرة وأرشد سائقها للعنوان وأنا أفرك يديّ توترا.. ياربّ ! لا ترني فيها سوءاً، فلا طاقة لي بتحمّل ألمها.. بلهَ فقدها !

أدفع لسائق التاكسي، وقبل أن أنزل يضع في يدي بطاقة وهو يقول:

- اتصلي بهذا الرقم إن أردت العمل، فهم يدفعون جيّدا..

ببلاهة وبدون تركيز أمسك الورقة وأنظر إليه بحيرة ثم أمضي لا ألوي على شيء.

تختفي التقلّصات عن وجه أمي تدريجيا فأدرك أن الألم بدأ يخفّ، وأن الأقراص المهدّئة التي منحني إياها الصيدلاني تؤتي أكلها بإذن ربّها.

أيمن نام على صدرها غير عابئ بأيّ شيء. هناك ينام الصّغار ولا عتب عليهم. الألم من حقّ الأطفال أما الكبار فدورهم الحماية والتحمّل.. كذا تقول عيونه المغمضة ووجهه البريء المحتفظ بمسار خافتٍ لدموع انهمرت على خدّه قبل أن يختطفه الموت الأصغر.

عمّ الصمت من جديد إلاّ من دقّات قلبي التي أخالُ أنها ستوقظ الحيّ كله بما تحدثه من ضجيج.

عزيزتي ليلى،

تسألينني عن أحوالي هنا.

ما الذي تتوقعينه من مهاجر سري؟ لا أوراق هوية و لا غيرها. رجل آخر لا يفصله عن العصر الحجري سوى أن يحمل هرواة و يلبس جلد النمر. لأول مرة أشعر بانفصال تام عن كل شيء يا ليلى. تاريخي، هويتي، انتمائي.. حتى اسمي أكاد أنساه. فهم بالمقهى ينادونني "إل كاباييرو بلانكو" وهي تعني الفارس الأبيض.
قالوا لي أن ملامحي مختلفة عن باقي المغاربة وأنني وسيم. زميلي "بيدرو" قال لي إنني أشبه بطل مجلة رسوم متحركة اسمه الفارس الأبيض. من يومها وهم ينادوني بذاك اللقب.
أحاول ألا أبديَ أي انفعال عندما يفعلون، لن يكون ذلك في صالحي. تعبيري عن رفضي أو قبولي للأمر قد يشجعهم على التمادي، لذا أتعامل مع الأمر بحيادية تامة. أحيانا أستجيب، و أحيانا أخرى أتركهم يعانون العذاب الأدنى وهم يحاولون أن ينطقوا كلمة "عبد الرحيم".
على أية حال، أشكرك عزيزتي على سؤالك و أخشى ألا أكون صدمتك بالإجابة. العمل كنادل هنا هنا شرف ما بعده شرف.
في أحد الأيام زرت مخيما للمهاجرين السريين ففوجئت بحالة يستحيل أن تصدقيها إن لم تريها. ما يحدث هنا مريع جدا يا ليلى، وأشبه بتراجيديا إغريقية متكاملة الفصول.
صورة واحدة رسخت في ذهني بشدة و أصبحت تؤرقني أكثر من مرة فلا أذوق طعم النوم لليلة كاملة، ربما أكثر أحيانا. كانت هناك امرأة تلقم رضيعها ثديَها وهي تسخن الماء في قبعة جنود حديدية! تُحرك الماء الساخن في القبعة المقلوبة. رضيعها يبدي رغبته في الحياة بأن يمصّ حلمة ثديها الضامر بشدة. كان جميلا جدا و عيناه واسعتين.
أمه كانت تنظر إلى لا شيء.
في كل مرة يهاجمني المشهد بقوة أفكر أن تلك القبعة من الممكن أن تحمل من السموم الكثير. يمكن أن تقتل الرضيع أيضا. من الممكن أن ينشأ منيعا، ربما. أبرر لنفسي ما رأيتُ بخيالات عديدة.
في المدارس أخطأوا عندما وضعوا لنا صورة طفل يبتسم و تحتها تعليق "ولد مجتهد". بدل هذا، كان ينبغي أن يضعوا لنا صورة للكرة الأرضية، ويضعوا تحتها جملة " عالم قاس لا يرحم."
بهذا الشكل، كانت استعدادتنا لاستقبال العالم ستكون أفضل بكثير.
كل هذا في الواقع لا يجعلني أستسلم كما تعلمين. أكره أن أنتحب و أصف لك هذا العالم بالقبح، فربما أنت أدرى مني بهذا. رغم أنك بريئة و طاهرة يا ليلى، لكنني تعلمت أن أكبر معلمي الحياة هم هؤلاء البسطاء الذين نعتقد أننا أكثر حكمة منهم.
رسالتك كانت قصيرة كالعادة لكنها مشبعة بك. كل حرف فيه هو جزء منك.

أؤكد: لا تعبئي بالإحباطات و الصدمات وكوني أقوى. إن ضعفت فستدوسك الحياة.
سيأتي مئات الأصدقاء ليقولوا لك إن مواصلتك للدراسة عبث. أولاد الحلال كثيرون جدا. موظفون براتب ثابت. مهمتهم في الحياة هي جعلك تتخلين عن حلمك. غايتهم هي الاستمتاع بالنظر إليك في إشفاق بعد أن تفشلي.

ساديون.. سيكوباثيون.. فاشلون أيضا.
سمّهم ما شئتِ لكن لا تجعلي أذنيك مزبلة لتفاهاتهم.
يقول لي حسن – رفيقي في السكن – أنه ليس من العدل أن يعمل حامل للإجازة مثلي في مقهى. أبتسم له بهدوء و لا أعلق.
أعتبر هذه الابتسامة من إنجازاتي الرائعة فعلا. ابتسامة معلبة لم أشترها من أحد بل صنعتها لنفسي.
كلما قال أحدهم تعليقا متعاطفا مبتذلا أو نصيحة متذاكية أرسم هذه الابتسامة و أسافر بذهني بعيدا و لا أفكر أبدا فيما قاله.
انتظر منير كثيرا أن أثور أو أبكي و أقول له أن الآخرين ظلموني ولم يعطوني حقي. بعد مدة اتضح له أنه فشل. بدأ يعاملني ببرود و لا يتحدث معي في أموري الخاصة. اعتبرت هذا نجاحا باهرا و شكرت الله لأنه منحني هذه الابتسامة.
أشياء كثيرة حدثت و تحدث منذ وصولي. أفكر في كتابة مذكرات بما يحدث لكنني أتراجع..
الناس يعيشون الحياة و الكُتاب يكتبون عنها. لا أريد أن أكون من الصنف الثاني كما أنني لا أريد أن أعبُر هذه الحياة بدون أن أترك بصمتي.
يذكرني هذا بقولة لباسكال:
"عندما نقرأ أسلوبا طبيعيا تأخذنا الدهشة والنشوة، لأننا نتوقع أن نجد كاتبا فإذا بنا نكتشف إنسانا."
لنقل إن هذه القولة هي خلاصة ما أريده. أريد أن أكتب كإنسان لا ككاتب وأعرف أن إتقان ذلك صعب جدا.

المخلص: عبدو - برشلونة

تصلني وردة صباحية، عبر برنامج المحادثة الفوري، من بشرى، تبشّرني بيوم جميل..

أرد عليها بإرسال وجه عابس مغتاظ. أحقا يا بشرى ترين جمالاً في مكان ما حولنا؟

لا أظن أن بشرى كانت تقصد شيئا فعلا. هي واحدة من التصميمات الجاهزة التي اختزلت كل المشاعر في زمن اللامشاعر.

عيدكم سعيد.. جمعتكم مباركة.. يومكم طيب..

لا أحد يعني شيئا مما يرسله. هي الأصابع تستسهل هذا التواصل الآلي فلا تنفكّ ترسله للعادي والبادي.

الحاجّة تحاملت على نفسها وغادرت في الخامسة صباحاً رغم اعتراضي العبثي الشديد. بدون عملٍ الوالدة سيكون علينا ببساطة أن نتسوّل.

أنهض بتثاقل من فراشي آملة ألا يكون أيمن قد أعدّ لي مفاجأة ما. لا أرغب إطلاقا في تنظيف سجّاد أو بلاط أو جمع أشلاء كأس قام بكسره، بالخطأ طبعا.

تسقط ورقة من بين ثنايا قميصي فأنتبه لها وأتذكر سائق يوم أمس. لا أدري ما الذي جعله يختارني من بين زبائنه ليمنحني هذه الفرصة المجانية. أم أنه يفعلها مع الجميع؟

الرقم المغري هناك ينادي بأمل جديد..

- آلو..

- آلو.. مرحبا..

- عفوا.. منحني هذا الرقم سائق تاكسي وقال لي أن لديكم فرص عمل..

- آه.. نعم.. نعم.. ألف مرحبا، يمكنك زيارتنا بمكتبنا بساحة الأمم، العمارة 3 رقم 15، متى شئت..

- حسنا، سأحضر غدا صباحا..

- نحن بانتظارك..

- لو سمحت فقط.. ما الشهادات المطلوبة وما هي المهمة التي سأقوم بها بالضبط؟

- فلتزورينا أولا.. والباقي تفاصيل..

تصلني رسالة أخرى من بشرى.. ألا تملّين يا لعينة؟

- لم تسأليني عن سبب جمال هذا الصباح؟

- بالله عليك ! تعرفين أنني أكره هذه التصاميم ... في الغالب أرسلته وأنت تتميّزين من الغيظ واليأس..

- هذه المرة استثناء.. لديّ فعلاً خبر قد يكون مفرحا..

- أسرعي إذن ولا ترهقيني من أمري عُسرا..

- لقد تم قبولي كمُدرّسة بأحد المؤسسات التعليمية الخاصة .. وسوف...

- مبروووووك.. هذا فعلا خبر سعيد..

- اصبري يا لئيمة، فالنصف الثاني من الخبر هو الأجمل..

- وهو؟

- المؤسسة التي سأدرّس بها تقع بطنجة.. سآتي لأجاورك..

- بالله عليك لا تخبريني لاحقا أنها مزحة، لأن ردّ فعلي لن يروقك !

- والذي نفسي بيده إنها الحقيقة..

من نافذة المطبخ أتأمل الدرب الضيق. لم تكن بشرى إذن كاذبة عندما وصفت هذا الصباح بالجمال. ليس هناك أجمل من أن تأتيني توأم روحي من أقصى تطوان تسعى.

ستهون الكثير من الصعاب وهي بجانبي. لقد قضينا معا 3 سنوات في الكلية أكاد أعتبرها أجمل أيام عمري فعلا، لولا ذلك القلق الذي لم يكن يفارقني على "الحاجّة" وأنا بعيدة عنها.

أنتبه أن الحليب، ذلك الكائن الحيّ، قد سال، بخبثه المعهود، فوق الموقد..

أضع طعام الإفطار أمام أيمن وأنا أفكر في موعد الغد. هل سأحمل أنا أيضا أخبارا سعيدة لبشرى؟

منذ أسبوع لم تصلني أية رسالة من عبدو. لا زال يفضل أن يرسلها بالبريد التقليدي، ولا زلت أفضّلها منه كذلك.

لم أطلب منه رقم الهاتف ولم يكلّف نفسه إرساله لي. بدأ الأمر برسالة منه، رددت عليها، قبل أن يتحول الأمر إلى مراسلات متتالية كان له فيها السبق والغلبة دائما. يعرف ظروفي لذا لا ينتظر ردا في الغالب ويواصل إرسال رسائله بشكل شبه منتظم.

أحتفظ له بها جميعا وأنا أفكر أنه قد يحولها يوما إلى يوميات منشورة.. من يدري ماذا تخبّئ الأيام؟

المكتب الذي دخلتُه فارغ إلا من كرسيين متجاورين. جلستُ على الفارغ منهما منتظرة عودة الشخص الذي استقبلني، وبقربي فتاة رجحت أنها لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها.

ملامحها شبه مغطاة بخصلات شعرها التي تتدلى من الجانبين. تُطرق برأسها أرضا وتحرّك قدميها في حركة متوتّرة. سألتُها:

- هل تعرفين كنه الوظيفة التي يطلبون؟

رفعت رأسها ببطء ونظرت إلى عينيّ في حيرة وشرود. بدا أن السؤال فاجأها. هرشت فروة رأسها في توتّر متواصل، ثم أجابت:

- أنت لا تعلمين؟

- نعم.. لهذا أسألك.

في حركة مريبة مفاجئة اقتربت بشفتيها من أذني وكأنها ستبوح بسرّ:

- إنهم يصوّرون أفلاما !

النبرة التي نطقت بها الجملة كانت كافية كي أفهم.

- تقصدين..؟ !

- نعم نعم.. ذلك ما أقصد.

الموظف السابق يخرج رفقة فتاة أخرى وهي تطرق الأرض بكعبها بخيلاءٍ متخاذلة. يودّعها بالقول:

- انتظري اتصالنا..

يبتسم لنا بلزُوجة واضحة ويعود إلى الغرفة الداخلية مشيراً بيده أنْ مزيداً من الانتظار. أتابعه ببصري وهو يقفل الباب وأعود لأسأل الفتاة:

- كم عمرك؟

- 18 سنة..

لم أصدّقها طبعا، ولم يبدُ عليها أنها كانت تنتظر ذلك. سؤال آخر منّي:

- ما اسمك؟

- سناء.. اسمي سناء. ولا بد أن أحصل على دور في هذا الفيلم. أحتاج المكافأة المالية بشدة. يقولون أنهم سيتدبرون أمر سفرنا إلى إسبانيا أيضا حيث سنصور بعض اللقطات هناك أيضا.

الجوّ غير المريح جعلني أنهض بسرعة مودّعة سناء، ملقية نظرة أخيرة على الورقة الموضوعة فوق مكتب الاستقبال، والتي طلب منا أن ندوّن عليها أسماءنا وأرقام هواتفنا.

رفعت ناظري فلم أجد أي كاميرا مراقبة. نكايةً بهؤلاء الذين يتلاعبون بمصائر الآخرين في كل أنحاء العالم قمت بأخذ الورقة ودسستها في جيبي وغادرت.

عزيزتي ليلى،

لا زلت أنتظر أن تصلني يوما رسالة منك أو اتصال هاتفي يخبرني أنك قد عبرت مضيق الحياة، مضيق جبل طارق أقصد، نحو هذه الجارة العجوز.. نحوي أنا !

أعرف أن مجرد التفكير في ذلك صعب جدا، في وجود الحاجّة وأيمن. لكنّني سأنتظر.

الهجرة، بكل مآسيها، رائعة وتجعلكَ ترَى الدنيا بمنظار مختلف. خصوصا إذا شعرت أن الوطن لم يمنحك شيئا.

يقول أمين معلوف "لكل إنسان الحق في الرحيل، وعلى وطنه أن يقنعه بالبقاء."

ويبدو لي أنه أقنعك لحدّ الآن، بقوة الأمر الواقع، بالبقاء !

أحيانا، أشعر أنني أبالغ في الاقتضاب في رسائلي. ربما لأنني أدرك أنك تفهمينني بأقل الكلمات. ولو كان الأمر بيدي لأرسلت لك يوماً ما رسالة عبارة عن ورقة بيضاء، وأنا متأكد أنك ستقرئين ما لم أكتبه. بل وقد تردّين عليّ أيضا.

عزيزتي ليلى،

يبدو أن الهجرة ستحمل لي الحلم الذي طالما راودني.. كيف ذلك؟ أرجو أن تصيخي السمع إذن...

تعرفين أن صديقي حسن مثال للشخص المادي الذي يحترم نفسه لدرجة أنه لا يتورع عن تقييد كل قروضه لك في دفتر خاص وكأنه أحد بقّالي مدينتنا طنجة .

لكن، أحيانا "يضع سره في أكثر خَلقه مادية". فقد لاحظ حسن أنني أكتب كثيرا، على جهازي، على هاتفي، وحتى على الورق أحيانا.

كان ينظر لي - كما يجدر بشخص مثله- بلامبالاة . كان أهم ما قاله يوما "أنت تحب الكتابة". وهي عبارة دالة على ذكاء واهتمام كبيرين كما تلاحظين!

عموما، قبل أسبوع جاءني حسن وسألني "هل تحب الصحافة؟". أجبته أنْ نعم وأنا أنظر إلى أظافري دلالة على عدم اهتمامي بما سيأتي به .

- حسنا.. هناك زبون خليجي يرتاد المطعم الذي أشتغل به بصفة شبه يومية ، اليوم طلب مني أن أجالسه قائلا أنه يشعر ببعض الملل وأنه يود الحديث مع شخص عربي مثله. تعرف أنني أكره الثرثرة لكن كلام هشام كان مثيرا بالفعل. إنه رجل يمسك بخيوط حديثه ويديرها كما يريد. كنت أستمع إليه كالأبله وهو يحلل المستجدات الإخبارية التي تملأ العالم الآن دون أن يسألني رأيي. ربما أدرك بذكائه أنني لا أهتم بما يقول.

توقف حسن عن الحديث ليرى أثر كلامه. كان يحاول أن يبدو مثيرا، لكنني - لسوء حظه - أفهمه تماما لذا واصلت النظر إلى أظافري كأنني أراها لأول مرة، بل إنني تماديت وبدأت أقلمها بأسناني (وهي عادة سيئة لم تتوقف أمي عن نهيي عن فعلها يوما)..

عندما يئس حسن من قدرته على جعلي ألهث انفعالا ، واصل حديثه:

- قال لي إنه صحافي وإنه يتعب جدا، خصوصا أنه المراسل الوحيد، هنا ببرشلونة، لجريدة "الصباح" التي تصدر من لندن..

- لو كان حسن قريبا مني لسمع دقات قلبي وهي تتسارع -

"... وسألني إن كنت أعرف صحافيا أو شخصا له خبرة في المجال لمساعدته في مكتبه الممثل للجريدة هنا.."

- أتكون هذه الفرصة التي طالما انتظرتها هناك ، فجاءت هنا؟ -

".. وقد وعدته أنني سأفعل وأنا أفكر فيك باعتبارك شخصا يكتب.. فما قولك ؟"

اعتدلتُ في جلستي وأنا أواجه حسن قائلا باهتمام مبالغ فيه كي لا أصيبه بالإحباط:

- هذا أمر يهمني حقا ، هل لي في مقابلة هذا الشخص ؟

- سأنتظرك بعد غد في مطعم "السمكة" حيث أشتغل على الساعة الواحد ظهرا، حيث يحضر السيد هشام للغذاء في مطعمنا كعادته.. والحديث لكما بعد ذلك.

قالها وهو ينهض مغادرا غرفتي ممثلا خير تمثيل شخصية الرجل الذي لا يبالي بأنه يخدمك، و دون أن ينتظر مني ردا باعتبار قبولي هو تحصيل حاصل.

لم أعترض. منذ مدة كففت عن المكابرة البليدة كما قلت. حسن رغم عيوبه لا يجعلك تبغضه. ومن لم يكن ذا خطيئة فليرمه بحجر.

بعد غد موعدنا. وفي الرسالة القادمة موعدي معك لأحكي لك ما حدث.

المخلص : عبدو – برشلونة

تتوالى الأخبار الجميلة في دائرة معارفي، ويواصل الروتين محاولة قتلي بنفس الأسلوب والطريقة كل ساعة.. كل يوم.. لكنّني لا زلت أقاوم.

أترك الحاجّة وهي تحاول التقاط أنفاسها من أثر يوميْ عمل متتاليين، وأردّ الصّاع صاعين للروتين بالخروج رفقة أعضاء جمعية "من أجل طنجة"، والتي تهتم بالحفاظ على تاريخ طنجة وآثارها.

كانت زيارة اليوم مخصصة لـ"ساحة الثيران". تلك المعلمة الرّائعة التي تركها المستعمر الإسباني خلفه، غير عابئٍ لا بدماء الثيران التي أسالها هنا، ولا بما سنفعله بها.

ويبدو أننا تشاركنا معه هذه اللامبالاة فتركناها تتداعى منذ تاريخ بنائها، سنة 1950، إلى الآن. تعالت الأصوات والدعوات بترميمها وتخصيصها لكل ما هو ثقافي، لكن دون جدوى.

سننتظر حتى تهوي ثم تسيل دموعنا عليها حسرات.

بعد مفاوضات طويلة مع حارس المكان، الذي لا يعرف الكثيرعمّا يحرسه، استطعنا الدخول.

دون أي تخطيط مسبق، وبعيون ذاهلة وأنفاس متلاحقة، تفرّقنا نحن الخمسة في أرجاء الساحة.

ألمسُ أحجار المدرجات الشاهدة على تاريخٍ تليدٍ مضى.. هناك شجرة تين توسّطت الساحة يبدو أنها نمت في غفلة من الرقابة.

قيل لنا أن هناك أسرا تعيش في المستودعات القديمة للساحة. الملابس المعلّقة بعشوائية في بعض الأركان أكدت لنا هذا الكلام.

أصعد المدرجات وأنا أحاول أن أتخيل كمّ الصخب الذي كان يملأ هذا المكان. لا يمنعني التعب ولا اللهاث من المواصلة.

بعدَ لأيٍ أصل إلى آخر درج. أجلس وأتخيل مشاهد لبعض مصارعي الثيران الذين مروا من هنا: "لويس ميغيل"، "دومينغوين"، "مانويل بينيتيث" الشهير بـ"القرطبي"..

أجلس في محاولة للاسترخاء في هذا الجو الذي يمتلأ بعبق الماضي. المدرجات مهترئة ومليئة بالشقوق. من أحدها يخرج جرذ متحمس جدّا وينطلق نحوي مباشرة وكأنه طوربيد موجّه، فأجفُل متراجعة قبل أن تتعثر قدمي وأهوي بجسدي في فراغ بين درَجتين..

أحاول أن أنهض مبتلعة خوفي وشعوري بالإهانة، قبل أن ينتبه إليّ أحد المرافقين. أنفض ملابسي وأنا أبحث عن الجرذ بين ثناياها.. لا ألم إذن لا قضمات.. يبدو أن الجرذ غير رأيه في آخر لحظة، وذهب يبحث عن طعام آخر.

أنتبه أنني أدوس على ورقة طويلة ملفوفة بعناية، فعل بها الزمن فعله فتآكلت من الأطراف. أحملها فأشعر بثقلٍ لها لا بأس به.

أفردها بصعوبة لأجدني أمام لوحة لفتاة يبدو من ملامحها ولباسها التقليدي أنها طنجاوية. اللوحة متقنة بشكل كبير وعليها توقيع ما في الأسفل.

- ليلى.. نحن بانتظارك.. حان وقت المغادرة..

يصلني نداء مرافقيّ، فأدسّ اللوحة تحت معطفي وأنا أهبط الدرجات، بتأنٍ وتؤدة هذه المرة، إثر الألم الذي بدأ يتزايد في وركي، وخوفا من سقطة أخرى تودي بما تبقّى من قدرتي على التحامل.

أدخل المنزل منهكة، ويدي على وركي كعجوز في الغابرين. تصلني قهقهات أيمن ممتزجة بضحكة أنثوية، فأزيح ستارة غرفتي لأجد بشرى قد انتهكت حرمتها رفقة أيمن دون استئذان.

- أنت هنا أيتها اللئيمة؟ عليك المحبّة..

أتأوّه إذ تضمنّي بشرى بكل ما يملك جسدها الضئيل من قوة.

- هه.. ما بك؟

- لا شيء.. سقطة غير متوقعة في مكان غير مألوف.

- لهذا علاقة بما في يدك؟

- آه تقصدين هذه اللوحة؟ سأحكي لك ما حدث لكن بعد أن نجلس أولا، وأن تقومي بطرد أيمن ثانيا حتى تستطيعي سماعي بشكل جيّد..

يغادر أيمن حيّزنا المكاني آسفاً متبرّما بعد أن حرمته من صديقته الكبيرة.

نتبادل أطراف حديثٍ بدأ يوماً ولا ينتهي ولن ينتهي. نقول كلّ شيء ولا نقول شيئا. بشرى توأم روحي فعلاً، ومعها أنسى شيئا اسمه افتعال أو تظاهر.

على سجيّتنا نتحدث بكل حرية. تسألني عن قديمي وأسألها عن جديدها.

- لا زال الوضع على ما هو عليه؟

- كنهر راكدٍ.. ماذا عنك؟ أين تقع المدرسة التي ستشتغلين بها؟ هل بدأت العمل؟

- المدرسة غير بعيدة عن هنا. تقع في حي "السواني". مدرسة صغيرة لكنها أنيقة ومنظمة بشكل جيّد وسوف...

تبتر بشرى كلامها فجأة وتنظر لحركة ما خلف ظهري فألتفت لأجد والدتي وهي تتكئ على جدار الصالة الصغيرة بتعبٍ بادٍ. أنهض مسرعة لأرى ما بال الحاجّة، بينما تسبقني بشرى في السؤال:

- خالتي.. ماذا هناك؟

- ماتت "حبيبة".. قتلوها.. كانت أعز صديقة وأخت..

- من حبيبة يا أمي؟ من قتلها؟

نساعدها على الجلوس كي تستطيع التماسك والإجابة. بدموعٍ منهمرة لا تتوقف، تجيبنا:

- حبيبة كانت تشتغل معي بمعبر سبتة. اتصلت بي الآن إحدى العاملات هناك وأخبرتني أنها توفيت إثر تدافع حدث في المعبر. اختنقت المسكينة تحت وطأة عشرات الأجساد المثقلة بالسلع !

لا يمكن قتل الألم إلا بألم أكبر.

يأتي الموتُ/الألم الأكبر فينهي كل شيء..

ينتهي عذاب الميّت وتبدأ لوعة محبّيه..

قادرة على تحمّل عذاب الحاجّة الجسدي أنا. لكن تلك النظرة الحزينة على وجهها تقتلني كل ثانية.

أراقب وجهها وهي تلتقط أنفاسها بسهولة، وأضغط كفها برفق كأنني بذلك أستجدي مزيدا من الهواء لرئتها. بشرى تضع خلف ظهرها وسادة كي يعتدل جسدها المتداعي أكثر.

أخيرا تهدأ أنفاسها وتغلق عينيها في سِـــنةٍ عابرة.

عزيزتي ليلى،

لقد صدق حسن وعده، والتقيت السيد هشام فعلاً. تعرفين أن (بلزاك) كان يطلب من تلاميذه أن يمشوا عشر خطوات في الحديقة، ثم يكتبوا له عشرات الصفحات عما رأوه. لن أكون عاشقا للتفاصيل مثله، لكنني لا أرى ضيرا في أن أصف لك السيد هشام..

هو شخص ذو عينين مرهقتين دائما، لكنهما يشعان بنشاط خفي لا تدركه إلا أثناء الحديث. وقد أثار استغرابي أنه لا يملك كرشا ضخمة على غرار من هم في وضعه و سنه، بل إن قوامه رياضي.

على جانب من الوسامة هو، رغم أن مقدمة شعره بدأت تتراجع القهقري جاعلة جبهته تبدو أطول مما هي عليه في الواقع.

عندما يمشي يبدو كأنه على وشك السقوط. السقوط الذي لا ينقذه منه سوى ارتمائه ارتماءً على أقرب كرسي. حاولتُ أن آخذ انطباعا أوليا عن شخصيته لكنني فشلت. بصفة عامة، فملامحه أميل إلى الطيبوبة.

إذا افترضنا أن الحياة فيها قروش ودلافين فإن السيد هشام سينتمي إلى الصنف الثاني حتما.

أنا الآن مراسل معتمد لجريدة (الصباح). نعم ، أخيرا تحقق الحلم. أنا حتى لا أشتغل كمساعد كما توقعت، بل أؤدي نفس الدور الذي يقوم به هو.. كلانا يرسل مراسلات وتحقيقات من مكتب الجريدة الذي يضمنا نحن الاثنين فقط، والذي قام بتزويده بجهاز كمبيوتر ومكتب إضافيين قبل حضوري بيومين باتفاق مع مسؤولي الجريدة.

أي شعور رائع هذا الذي ينتابك وأنت ترى أنك قد أصبحت مهما فجأة؟!

لقد أفادتني تلك الأشهر الستة التي أمضيتها في دراسة الإعلاميات هناك في طنجة. وقتها كانت تبدو لي - في غمرة اليأس - عبثا لا طائل منه سوى زيادة في الأوراق المختومة التي لا تصلح لشيء.

الآن أدرك فائدة ذلك حيث لا أجد صعوبة في التعامل مع الكثير من التفاصيل التكنولوجية التي أحتاجها في عملي.

إنه الإسهاب. أليس كذلك؟ سأغنيك عن كل التفاصيل ويكفي أن تعرفي أنني الآن صحافي ولست نادلا. تحوّلٌ جذري هو أراحني كثيرا.

لم يقم حسن بأية حركة كي يثبت لي أنه قد أسدى لي خدمة. هناك أناس نتأخر كثيرا في فهمهم، أناس من معدن خاص حقا، وحسن من هؤلاء دون أدنى شك.

أتركك الآن في رعاية الله منتظرا جديدك.

المخلص : عبدو – برشلونة

عزيزي عبدو،

المطر كتابة.

الكتابة غيث.

إمساكٌ إبداعي مزمن يرافقني كلما غاب المطر عن طنجة، وبالكاد أستطيع التفكير، بلهَ الكتابة. أعرف أنك ستعذرني على ندرة رسائلي قبل حتى أن أسرد أسبابي. وما داعي وجود الأصدقاء إن لم يلتمسوا لنا الأعذار قبل نطقنا بها؟

لا زال جديدي قديما كالعادة. حياة مختصرة واضحة تسير في اتجاه واحد.

أمي تشتغل وتتعب. أيمن يشاغب ويبعث أملاً خافتا في أرجاء البيت. أنا أفعل "لاشيء".

من حين لآخر أنتفض وأقوم بمحاولة هنا وهناك، وعندما أجد النتيجة واحدة أعود إلى اللاشيء. لا أحب أن أسميه انتظارا، لأن هذا الأخير يأتي بعده خبر ما، كسر للروتين، انعطاف مفاجئ..

الانتظار يليه أمر ما..

حالتي سكونٌ سرمدي..

لكن عموما، يمكن أن أروي لك ما يحدث حولي، وأنقلك من عالمك الجميل الجديد إلى عالمي المُقبض..

أمي تعبت جدا مؤخرا بعد خبر وفاة صديقتها حبيبة، وأظنك ف الغالب تابعت ما حدث من موقعيْك المكاني والرمزي أيضا. ضجّ الإعلام والمجتمع بما حدث، ثم- كما يحدث دائما – عمّ الصمت الأجواء وانتهى كل شيء كما بدأ.

دفنت حبيبة ودفن معها حقّها وحقّ أسرتها. الحزن هو الوحيد الذي بقي بعد موتها.

صديقتي بشرى انتقلت للسكن بطنجة. حصلت على وظيفة لا بأس بها كمدرّسة هنا. على الأقل أصبحت قريبة أكثر كي أقتل معها من حين لآخر وحدتي التي اخترتها عن طواعية.

أحاول أن أعثر على شغل، لكنني أتعثّر بدل ذلك. آخر محاولة لي كانت ستسفر عن وجودي في فيلم إباحي.. تصوّر معي أي كوميديا سوداء تحدث هنا !

أمّي أصبحت مقلّة في ذهابها إلى باب سبتة. لأول مرة أرى الحاجة وهي تتداعى. قواها أصبحت خائرة. هل أصف لك الألم الذي يمزّق أحشائي وأنا أراها كذلك؟

لن أدعك تغرق معي في مأساتي، وسأنتقل إلى دنياك لأهنئك على قبولك بصحيفة "الصباح". هكذا ببساطة تنقلب الأمور من سيّء إلى جيّد. من سيّء إلى أسوأ أحيانا أيضا.

سعيدة جدا من أجلك وواثقة أن هذه مجرّد خطوة أولى ستليها قفزات منك لتصل إلى مجدٍ لطالما بحثت عنه.. أو على الأقل، لتفلت من حصار إحباطٍ كان يتبرّص بك مثلما يتربّص بي هنا والآن.

تنتظرك أيام من المتعة والتعب اللذيذ ولا شك.

لا أدري إن كنت مقيما لحد اللحظة مع دانييل وحسن، لكنني أوصيكما بها خيراً. من خلال حكاياتك عنهما يبدو الأول ظريفا دون افتعال، والثاني قاسياً بافتعال.

نولد أخيارا يا عبدو لكنّ الظروف قد تفعل بنا الأعاجيب. الأهم أن يبقى الواحد منا إنساناً ولا يصبح وحشاً.. ولكن كيف لنا أن نضمن ذلك؟

عموما، لا بأس أن تتخلى عن إصرارك بعدم استعمال الهواتف الذكية، كي تستطيع أن توافيني بصورٍ تشبع فضولي عبر تطبيق "واتساب". أعدك ألا أمطرك بالرسائل ولا الأسئلة.

المخلصة: ليلى - طنجة

بالكاد استطعت أخيرا أن أنهي رسالة قصيرة جدا كتبتها لعبدو، وبصعوبة بالغة تحاملت على نفسي وقمت بالخطوة الأصعب وهي التوجه نحو البريد وإرسالها.

العادات القديمة أصبحت عبئا ثقيلا، لكن العزيز عبدو يستحق.

هاتفي يهتزّ مؤذنا بوصول رسالة فورية جديدة من بشرى..

- والدتك تعبت قليلا.. لا تقلقي أبدا، لكن حاولي الحضور دون تأخير أفضل..

يهوي قلبي بين قدمي. أمسك كفّ أيمن الصغيرة غير مبالية باحتجاجه..

- أريد حلوى من هناك يا ليلى.. بشرى عندما تمرّ لأخذي من المدرسة دائما تشتريها لي..

- تلك بشرى.. اسمها يدلّ عليها.. لا تتدلّل الآن. لديّ عمل سأقوم به.

خطوات أيمن الصغيرة تعرقل سرعتي فأحمله مرغمة وأواصل عدوي نحو البيت. من بعيد يبدو لي أن الأمر أخطر مما وصفته بشرى.

أمام البيت تقف سيارة إسعاف وقد التف حولها عدد من سكان الحيّ فيما نطلق عليه في طنجة "جُوقة". الفرجة مضمونة والفضول يلتهم النفوس الفارغة التهاماً.

رأس بشرى وهي ترنو إلى قدومي يبدو لي من بعيد. تسرع نحوي وهي تؤكد ما جاء في رسالتها ضمنيّا:

- لا ترتعبي من مشهد سيارة الإسعاف. أنا فقط فضلت استدعاءها من باب الاحتياط. إن شاء الله ستكون الحاجة بخير.

- ماذا حدث بالضبط؟

- والله أنهيت حصتي ومررت لأطمئن عليك وعليها ككل صباح. كانت تبدو بصحة جيدة، وتبادلنا أطراف أحاديث لا بأس بها. لكن فجأة، ودون سابق إنذار، وجدتها قد غابت عن الوعي تماما وهي تهذي..

- شكون توما؟

بحدة يسألني أحد المسعفين مانعاً إيّانا بذراعه، أنا وبشرى، من الصعود إلى السيارة بجانب جسد والدتي المسجّى. بنفس طريقته أجيبه وأنا أبعد يده بغلظة مبرّرة:

- ابنتــــــاها..

أمسك يد أمي الباردة وأتأمل صدرها الذي لا زال النفس يتردد فيه لحسن الحظ.

أثر عرق بارد لا زال يرسم خطوطا باهتة على جبينها الأبيض.

- ألن تقدموا لها أية إسعافات أولية؟

- لا تتوفر السيارة على شيء من هذا.. اصبري حتى نصل المستشفى..

أبتلع عشرات الكلمات التي كانت ستقفز إلى شفتيّ وأنظر إلى بشرى نظرة ذات معنى فتجيبني أنْ اصبري.

قسم المستعجلات يشبه سوق كاساباراطا. صخب وفوضى وأنين ولا أحد يلتفت إلى الآخر. البعض ينتظر نداءً ما من مكان ما ينهي آلامه أو آلام من معه.

بشرى تستعمل كل ما يملك جسدها الضئيل من طاقة كي تستعجل الممرضين لإدخالها للطبيب المناوب، حتى أنني لا أجد فرصة للكلام. تتحايل، تترجّى، تصرخ أحيانا..

أخيرا، يصل والدتي الدور، فيدخلونها للفحص وهي لا زالت على النقالة التي أحضرها فيها المسعفون.

لحظات طويلة كالدهر تمرّ علي وبشرى تمسك كفي محاولة أن تمنحني طاقة اطمئنان ما لا أشعر إطلاقا أنها تملكها. لكن في لحظات كهذه يكفي وجود شخص بجانبك.

- أتمنى أن ترعى جارتكم أيمن بشكل جيد..

ريقي الناشف يمنعني من قول أي شيء، مواصلة النظر إلى غرفة الفحص.

بعد ربع ساعة، يخرج الطبيب وينادي على أحدهم. نتوجه نحوه وفي عيوننا نظرات متسائلة تغنيه عن الكلام:

- أنتما ابنتاها؟

- أنا ابنتها.. هذه صديقتي.. طمئنا رجاءً..

- لا زال الوقت مبكرا على أي كلام الآن..

يحضر أحد الممرضين فيطلب منه نقلها إلى غرفة أخرى. ثم يستدير لنا محاولا أن يرسم على وجهه شبح ابتسامة:

- لا تقلقا. فقط انتظرا حيث أنتما وسأوافيكما بالنتيجة بعد قليل.

"بعد قليل" تلك استمرت سنوات قبل أن يقبل علينا الطبيب من ممرّ آخر وفي يده كشف أشعة يتأمله بملامح جامدة.

نرمقه أنا وبشرى بنظرات متطلّعة لقولٍ مطمئنٍ، وككل الأطباء في مثل هذه اللحظات، آثر الأخير ألا يطيل علينا الانتظار، قائلا في جملة واحدة بدت كقنبلة تفجرت بين أضلعي:

- للأسف.. الحاجة تعاني من سرطان متقدم في الثدي.. ألم تكونا تعلمان ذلك؟

تجيب بشرى بدلا عنّي وقد لاحظت أنني الآن انتقلت إلى عالم آخر أسود مظلم إذا أخرجتُ يدي فيه لم أكدْ أراها..

- لا والله.. لم نكن نعلم.

- لا بد الآن من نقلها لمدينة الرباط لكي تتلقى العلاج اللازم والذي نأمل أن...

- دكتور !!!

نداء قويّ يأتي من الممرض الذي أشار بيده للدكتور أنْ أسرعْ. الظلام يحيط بي أكثر وأكثر وأنا أمسك كف بشرى التي تجرّني وراءها جرّا علّنا نسمع الخبر الذي يجعل الممرض ينادي بكل هذه الحدة.

نفشل في ذلك، فأتهاوى أنا جالسة على أرضية المستشفى قرب باب الغرفة التي دخلها الطبيب بينما تنحني بشرى بجانبي رافضة ترك يدي، وكأنها تخشى أن أفلت منها مثلما توشك الحاجة أن تفلت منا.

تمرّ الدقائق بطيئة بطيئة، كسلحفاة عجوز تتهادي لا يشغلها شيء..

يخرج الدكتور يجرّ وراءه أذيال خيبة جليّة وهو يقول بصوت بدا لي كإعادة بطيئة للقطة سينمائية:

- البقاء لله. لقد رحلت الحاجة. فـــــــــصبرٌ جميل..

انقضت مراسيم الجنازة والعزاء، وأنا ذاهلة بالكاد أدرك ما يدور حولي.

بشرى قامت بمهمة تعدل مهمّة عشرات الرجال. تكفّـلت بكل شيء، ولا أدري كيف فعلتها، ولم أستطع التفكير في ذلك أصلا.

أخيرا هدأ كل شيء وعاد البيت لهدوء يعدِلُ هدوءه السابق ويزيد. أيمن يشعر أن الأمور ليست على ما يرام ويسأل عن الوالدة كل نصف ساعة. الجواب جاهز دائما:

- الحاجة بخير. إنها مع الله الآن. حاول ألا تكون مشاغبا كي ترضى عنك وهي هناك.

لا يبدو عليه الفهم. لكن، بعض الرضا يغشى ملامحه فيعود للَهْوِه حتّى حين.

بعض الوجوه من عائلتي البعيدة كانت حاضرة في الجنازة تحاول أن تتظاهر بالحزن. حضروا يوما واحدا ثمّ فرّوا كفرار الصحيح من المجذوم.

قالت لي بشرى إنها تلقت بضع مساعدات من أناس ليسوا من عائلتي ولا تعرفهم. هناك دائما أبطال في مكان ما يرسلهم الله ليقوموا بمهام محددة ثم يعودوا إلى مُقامهم، لا يريدون جزاءً ولا شكورا. المشكلة الوحيدة أننا نفشل في معرفتهم.

تستأذنني بشرى كي تعود لعملها وشقتها المكتراة.

- لست جادة طبعا؟

- في العودة إلى العمل؟

- بل في العودة إلى الشقة.. لا مكان لك الآن غير هذه الأمتار المربّعة. غرفتي طوع أمرك وأنا سأنام هنا في الصالة قرب أيمن حيث كانت تنام الحاجة رحمها الله.

- أرجو ألا تحرجيني ليلى..

- توقفي بشرى عن هذا العبث واذهبي وأحضري حاجياتك بسرعة.. هل أبدو لك كامرأة تمتلك مزاجا للجدال؟

الحزنُ يمزّق كبدي تمزيقا. كيف ستكون أيام الله بدون الحاجة؟ كيف سأشعر بوجودي دون أن أنهي يومي بغسل قدميها بالماء الساخن المُملّح، أملاً في راحةٍ مؤقتة؟

كيف لم يخطر ببالي أن آلام صدرها هي نتاج إصابتها بسرطان الثدي؟ أم أنني كنت أتهرّب من البحث عن الأسباب خوفا من الإجابة الصادمة التي لن أستطيع لها علاجاً أو دفعاً؟

هي ولا شك قاومت كثيرا في بداياته قبل أن يقهرها الألم وتقرّ بوجوده.

في ذلك الركن الصغير في الصالة تقبع كل "أسلحة" الحاجة التي كانت تجابه بها الحياة كي تحضر لنا لقمة تسدّ الرمق. الكثير من الأثواب والبلاستيك وأشياء أخرى لا أعلمها.. الله يعلمها.

ظلت لتلك الأشياء، على بساطتها، هيبة وحرمة لدرجة أنني لم أمدّ يدي لاكتشافها يوما.

بتوجس أقترب منها وأنظر إليها لدقائق طوال. قرأت يوماً في تقرير برلماني أن نساء التهريب يحملن ما بين 100 إلى 140 كيلوغراما على ظهورهن. كانت أمي تحمله جسديا، وأنا أحمله معها في كل مرّة نفسيا.

منطقيا جسد أمي بالكاد يستطيع حمل 10 كيلوغرامات. لكن أدرينالين الخوف على مصيرنا أنا وأيمن كان يمنحها طاقة مضاعفة فتحمل وتتحمّل دون شكوى أو أنين.

أراد الله أن تموت وأنا بجانبها. على الأقل لم يكن آخر ما تراه من الدنيا أقدامٌ تدوسُها !

اللهمّ ربّ هذه المدينة ارحم أمّي برحمتك التي وسعت كل شيء.

تدخل بشرى حاملة حقيبة سفر في يد وبضع حاجيات في اليد الأخرى. تتجمد في مكانها وتتأمل وقفتي ونظراتي تلك.

- فيم تفكّرين؟

- فيما خطر على بالك الآن..

- لا تكوني خرقاء. سنجد عشرات الحلول الأخرى، فلا تتهوّري.

- في انتظار ذلك هناك حلّ جاهز أراه أمامي الآن.

- هذا ليس وقت اتخاذ قرارات يا ليلى وأنت أدرى مني بذلك.

- آه.. نعم..

بغير اقتناع تصمت بشرى وتنظر مباشرة إلى عينيّ باحثة عن الجواب الحقيقي.

- دعك من حيلة Double think هذه.. أعرف أنك تقولين شيئا وتفكرين في شيء آخر..

- إذن لا داعي للإطالة ولا ترهقيني من أمري عسرا.

تزفر بشرى في استسلام مؤقت ثم تضع حاجياتها بقربي.

- لا ليس هنا.. قلت أن غرفتك بالداخل.. أنا من سيجاور أيمن هنا..

وكأنها تعبت من نقاشٍ تعرف نتيجته، حملت بشرى أمتعتها ودخلت الغرفة.

أبدأ أنا في فرز عُدّة عمل الحاجة: قطعة بلاستيكية كبيرة.. قطعة قماش.. حزام ضخم.. لصاق..

أحمل هاتف الحاجة الذي بقي في مكانه مُذ رحلت. المسكينة، في جعبة دليلها بضعة أرقام لا تتجاوز العشرة. أجرب بضعة أرقام قبل أن أصل مبتغاي وأسمع صوتا أجشّا:

- الحاجّة فاطمة.. كيف حالك؟

- الحاجة رحلت إلى دار البقاء.. أنا ابنتها؟

- أوه.. رحمها الله.. متى كان ذلك؟ لم يخبرنا أحد.. رزقكم الله الصبر والسلوان.. خبر مفجع حقا..

- شكرا لك.. رحلت قبل 4 أيام.. لا حرمك الله ممن تحب..

- هل من خدمة يمكنني تقديمها؟ أنا رهن الإشارة؟

- فقط لو كان بالإمكان مواصلة ما كانت الحاجة تقوم به..

- من سيفعل ذلك؟ أنت؟

- نعم.. سنكمل بنفس الوتيرة وكأن لا شي تغير.

- وهل لديك خبرة في التهريب؟

- لا.. لكنني سأتعلم. لا تشغل بالك.

- حسنا.. كما تشائين.. سأتصل بك لأخبرك بموعد الحمولة القادمة..

- وأنا رهن الإشارة..

لأن أيمن لم يبدأ التعليم النظامي بعد، وجدت سهولة في نقله إلى المؤسسة التي تدرس بها بشرى. هكذا انزاح عبء ثقيل عن كاهلي.

كم يكون من نحبّهم أحيانا عقبات في صراعنا مع الحياة..

سيرافق بشرى ذهابا وإيابا، وحتى في البيت أثناء غيابي. شعرتُ بالذنب وأنا أرى أيّ أيّ مسؤولية أحمّلها. لكنني لا أملك أي خيارات.

في مدينة المضيق قابلتُ "السي ميمون". رجل بطيء الحركة هو. بعينين ناعستين يصعب أن تدرك معهما إن كان مستيقظا أو نائما. بتراخٍ شديد صافحني وطلب مني الجلوس على الكرسي الوحيد الفارغ الوحيد بالمكان..

- أظنك تعلمين أهم تفاصيل الشغل من الحاجة رحمها الله.. لهذا كلّي آذان صاغية لما ستأتين به..

أومأت برأسي موافقة. الحقيقة أنني لم أعلم أي شيء من المرحومة. بل من إحدى صديقاتها التي وجدت رقم هاتفها بهاتف الحاجّة، وحاولت أن أستمدّ منها كل ما أحتاجه من معلومات..

- الحقيقة أن المبلغ الذي كنت تمنحه للحاجة غير كافٍ.. 150 درهما لا تستحق كل تلك المخاطرة..

تراجع إلى الوراء في كرسيه الذي تآكل جلده وأصبح يصدر أزيزا غريبا بفعل الزمن. في عينيه نظرة تأفف واضحة. لا يبدو مستعدا لأي مفاوضة مع طفلة تعتبر عمله الخطير مجرد لعبة. ومع ذلك فقد كان عمليا جدا.

- حسنا. أنا لن أطيل الحديث إكراما لوجه الحاجة التي لم نر منها سوى كل خير. سأمنحك 180 درهما لكل عملية. اتفقنا؟

- اتفقنا.

في نبرة حديثه استطعت أن أستشف بسهولة أنه يسايرني منتظرا فقط أن أعلن، بعد أول عملية، أنني غير قادرة على عمل شاقّ كالتهريب المعيشي.

ليل منطقة باب سبتة يرخي سدوله وأنا أتصفح هاتفي باحثة عن رقم "مينة" صديقة المرحومة، وأمامي طابور لا نهائي من نساء يتربّصن بلحظة إعلان السماح بدخول مدينة سبتة.

- ليلى؟

أستدير لأجد عجوزا متغضنة الوجه، باسمة رغم ذلك.

- أنت "حبابي مينة"؟

- أنا هي. أطفئي هاتفك أولا، وتظاهري أنك جئت لتزوريني فقط. منظرك الأنيق هذا سيجرّ عليك ما لا تعلمين.. ابقي بجواري الآن وافتحي آذانك وعيونك جيّدا.. الدرس القادم لن يمنحوه لك وأنت على مقاعد الدراسة..

استجبت لأمرها وأنا أحاول أن أجد يعينيّ نهاية ما للطابور الممتد أمامي. تشرح لي مينة الوضع:

- المعبر لا زال بعيدا وسنحتاج 24 ساعة كاملة كي يصل دورنا إن كان هذا ما تودّين معرفته..

البرد يتسرب إلى عظامي وأنا أجلس فوق دكّة إسمنتية رفقة "مينة". تنتزع الأخيرة رداءً إضافيا كانت تتدثر به وتضعه على جسدي.

- الدرس الأول: انسي لباس الحفلات هذا. وحاولي أن تلبسي كل ما تملكين كي تتقي هذا البرد القاتل..

لم أعترض مرة أخرى على حركة مينة. البرد فعلاً نال مني، والمكابرة آخر ما أحتاجه الآن. يا ترى كيف ستمضي الساعات الأربع والعشرين القادمة؟ هل سأحتمل حقا؟

كيف يمضي أيمن ليلته الأولى، بدوني، رفقة بشرى؟

كلما أوغل الليل أكثر، كلما ازدادت قساوة الطقس. السماء صافية مما يجعل قطرات الندى، ورذاذ أمواج البحر خلفنا، تضيف للجوّ برودة لاذعة تنتزع مني بين الفينة والأخرى قشعريرة قوية.

أتأمل في النساء المنتظرات بكثير من التعوّد وقليل من التبرّم. إحداهن نامت فوق كومة ملابس وقد سال لعابها على خدها غير عابئة ببرد ولا زمهرير. أخرى تدلّى رأسها على صدرها وتعالى شخيرها الذي لا يوقفه سوى انتباهة مفاجئة منها، قبل أن تعود لوضعها السابق.

مينة أيضا نامت متكئة برأسها على الحاجز الحديدي الذي خلفها..

يداعب النوم جفناي بقوة خصوصا أنني غير متعودة على هذا السهر المتواصل. أندس بقرب مينة محاولة أن أحمي جسمي من كل جوانبه بما أحضرته معي من عُدة لا أدري بالضبط لما ستصلح لاحقا.

- هيّا هيّا..

يوقظني صوت مينة وحركتها إذ تكزني بمرفقها. هل نمت حقا؟ في هذه الظروف؟ ما كنتُ أعتقد يوما أنني فاعلة أمرا كهذا..

أنهض وأنا أنفض عني ترابا وهميا. السلسلة البشرية تتحرك الهوينى فنتبعها أنا ومينة.

يتوقف الطابور مرة أخرى، فتتأفف مينة معلنة بصوت عال:

- عليهم أن يسرعوا أكثر.. في كل مرة يزيدون مدة الانتظار هؤلاء الأوغاد..

وكأن عقالاً كان يشد لسان الجميع منتظرا كلمة مينة. تعالت عشرات ومئات الأصوات المحتجة في تنفيسٍ عن ليلة تعبٍ مرهقة.

شمس شهر أكتوبر تتوسط كبد السماء، معلنة وداعاً مفاجئا وحارّا جدا لفصل الصيف. حرارة الأجساد تنضاف لحرارة السماء فتلهب الأجساد المنهكة.

حرارة إضافية أشعر بها من جسد ملتصق بي من الخلف بشكل مبالغ فيه. أستدير فإذا بشابّ يتظاهر بالنظر إلى اللامكان. أنظر إليه بحدة وتحذير، ثم أطلب من مينة أن تتبادل المكان معي. تستجيب وهي تنظر لي وللشاب في فهم..

- شراااااخ..

دون سابق إنذار تفعلها حبابي مينة غير منتظرة لأي تفسير. صفحة قوية على وجه الشاب تردد صداها في المكان.

- أيها الوقح.. ألا تستحي؟

خلال ثوانٍ كان الشاب قد أصبح عجينة حقيقية بين أيدي النساء الحاضرات اللائي تكالبن عليه، في اتفاق غير مكتوبٍ على ما يبدو.

تتركهن مينة يؤدبنه وتعود لي مخاطبة:

- في المرة القادمة لا تترددي وافضحي من هم مثله مباشرة. نحن هنا على قلب امرأة واحدة فيما يتعلق بالتحرّش..

- حسنا يا مينة.. سمعنا وأطعنا..

تتلوّن الموجودات من جديد باللون الرمادي ثم الأسود. تغيب الشمس تاركة وراءها دماءً حمراء قانية في سماء الله. تقول مينة مواصلة مهمة الإرشاد:

- سنكون مضطرين لمبيت ليلة أخرى يا ابنتي.. حاولي التحمل.. غالبا غدا صباحا سندخل غير مرحبٍ بنا.

وتمضي ليلة أخرى وتنتهي بصرخات تهز السكون:

- ياااالاه، ياااالاه..

وكزة أخرى من مرفق مينة. قدم تدوس ركبتي وتتجاوزني. لقد قامت القيامة..

أرى من مكاني الباب الحديدي وقد فتح أمام المهرّبات، وبدأ تدافع عنيف يصعب أن يخرج منه أحد سليما معافى. لكن الواقع أنهنّ يتمكنّ من النجاة رغم كل شيء، ما لم يخطف الموت إحداهنّ من حينٍ لآخر.

هل سأنجو أنا يا ترى؟

مينة تبدو لي وقد تجاوزتني متناسية وجودي تماما. إنها لحظة الزحف ولا غرو !

أدركت، متأخرة قليلا، أنه لن يسعفني غير جسدي فاندسست وسط الأجساد وأنا أحاول في كل حركة أن أتقدم مترا أو أكثر..

الكثير من اللغط. الكثير من الفوضى ورائحة العرق. الكثير من الشتائم أيضا.

بدون سابق إنذار قد يقرر حرس الحدود، من الجانب الإسباني، إقفال الباب فتصير كل محاولتنا هشيماً تذروه الرياح.

وكأن تفكيري كان جاذباً تماما لما فكرت به، إذ تم إقفال البوابة في وجوهنا قبل أمتار من وصولي إليها..

بين الوجوه يبدو لي وجه مينة فأناديها بأعلى صوتي، مشيرة بيدي بتساؤل عمّا العمل الآن؟

إحداهن غافلت الجمارك فتسلقت الباب قبل أن تقفز إلى الجهة الأخرى ونسمع جميعا صوت تهشّم أحد عظامها. صرخت بقوة وبقيت في مكانها وهي تئن غير قادرة على الحركة.

اقتربت منها بعض النساء في محاولة للمساعدة، بينما حاول بعض رجال الجمارك ثنيهن عن ذلك..

كان الجميع مشغولا بحادث السقوط، فاغتنمتها فرصة لتكرار التجربة محاولة أن أكون أكثر حرصا.

انتبهت لي مينة وأنا أتسلق الحاجز الحديدي الزّلِـــق. وصلت أعلاه فوجدتها تشير لي أن اقفزي محاولة أن تمد يدها لتتلقفني..

- بالله عليك يا مينة.. سنتضرر معا هكذا..

أمسكت الحاجز وانزلقت هبوطاً شيئا فشيئا حتى وصلت الأرض، بدلا من القفز الذي لا تضمن نتائجه..

أمسكتني مينة هذه المرة من كفي وجرتني خلفها جراً وهي تحث الخطى حتى تجاوزنا الحاجز الإسباني وأصبحنا أخيرا داخل مدينة سبتة..

يبدو أنني فعلتها حقّا !

طابور آخر !

فجأة تحولت الحياة إلى سلسلة طوابير لا تنتهي. طابور قرب المعبر. طابور قرب مخزن السلع. ثم ازدحام خانق، وهو الأخطر، عند المغادرة.

في الطريق إلى المخزن كنت أتلفت حولي، أحاول أن أكتشف تفاصيلَ مدينة سُرقت من بين أيدينا ذات غفلة. ما لفت انتباهي أن تعايشاً نادراً يتواجد هاهنا بين الإسبان والمغاربة. الأجيال التي ولدت هنا من الجانبين لا تعرف حدودا ولا أوطانا.

بيدرو يصادق محمد بكل بساطة، والمسجد يجاور الكنيسة دون أن يتأفّف أحدهما من الآخر.

لا يبدو أن تاريخاً غابراً لا يعني هذه الأجيال. حتى أنهم يكتفون بوصف أنفسهم بـ"السبتاويين"، نسبة إلى مدينة سبتة، هكذا دون أي إحالات أو انتماءات مسبقة، أو حدود.

يصلني الدور فأسلم لمسؤول المخزن ورقة مختومة عليها طلبات "السي ميمون":

- السي مااايمون...

بصوت عالٍ يصرخ الشاب الإسباني في الحمّالين، فيحضر أحدهم كومة ضخمة تحوي سلعا خفيّة.
يناولني بسرعة وتلقائية شخصٍ اعتاد هذه الأمور. أحاول أن أستفسر منه فيقطع كلماتٍ لا زالت لم تخرُجْ بعدُ من حلقي:

- إل سيغينطي...

- اسمعني أولا يا هذا ثم نادي على التالي. لقد أكد عليّ ميمون ألا تنسوا ترقيم السلعة كي يسهل عليّ العبور.

بغضب واستنكار واضحين ينظر إليّ الشاب الإسباني، ويهمّ بقول شيء ما، قبل أن يتقدّم الحمّال الذي سمع كلامي ويقوم بكتابة رقم ما على السلعة برذاذ أسود معلّقا:

- لقد نسينا ذلك فعلا..

يقرّعه الإسباني على إهماله بدارجة مغربية لا تثريب عليها بينما أدفع سعلتي التي اكتشفت أنها أثقل بكثير مما تخيّلت.

آخذ، مثل باقي النساء، ركنا قصيّا، وأبدأ في لف السلعة حول وسطي. بعيون متلصصة أحاول أن أتعلم منهن كيف يفعلن ذلك.

عشرات المحاولات قبل أن أنجح أخيرا في ربطها حول خصري بشكل محكم. والآن كيف سأنهض؟

بدون أن تلتفت إليّ وبحركة متعوَّدة مدت إلي إحداهن كفيها وهي تواصل كلاماً استهلّته مع أخرى. لم تلتفت لكلمات الثناء التي صدرت عنّي وهي تنطلق إلى وجهتها.

الآلية هنا تطبع كل شيء. الرّوتين والتعب قتلا كل المشاعر. لقمة العيش ودوامة الحياة تبتلع، كثقبٍ أسودٍ هائل، كلّ من يقترب منها.

أمامي فوضى جديدة وليس طابور في الحقيقة. كل الأجساد متكدّسة ترغب في المرور من ثقب إبرة يسمح بولوج جسد واحد لا أكثر. الحرس الإسباني بتعاون مع شباب مغاربة ينظم العملية بكثير من الارتجالية والصراخ والوقاحة أيضا.

بعد لحظات وجدت أنني اتخذتُ موقعاً وسطاً بين الأجساد. بالكاد أستطيع البقاء واقفة والتقاط أنفاسي. كل المحيطات بي قويّات جدّا ودفعاتهن تطيح بي هنا وهناك.

مضت ساعة تقريبا دون أن أتقدم خطوة واحدة، بل إنني اكتشفت أنني أتراجع تدريجيا إلى الوراء، مع تجاوز الكثيرات لي. أكيد أن الوسيط الآن ينتظر السلعة في ما يعرف بـ"منطقة الجبل"، حيث نسلّم السلع لتواصل مسارها نحو أصحاب الخزائن، ثم إلى باقي المحلات التجارية في كل مدن الشمال.

لو تأخّرت فسأكون قد فشلت في أول يوم لي، وسيضيع ما بذلته من جهدٍ هباءً منثورا. استجمعت كل ما تبقى من قواي وبدأت أخترق الأجساد مستعينة في ذلك بنحافتي التي لم تسعفني كثيرا أمام ما أحمله من حِمل.

عضلاتي تئنّ والغضب يتزايد في داخلي وسط كل الشتائم المقذعة التي أسمعها كل لحظة. بعضها موجه لي لأنني تجرّأت على التجاوز، وبعضها موجه للأحد. شتائم هوائية يمكن لمن شاء أن يلتقطها: الآخرون، الوطن، إسبانيا، الحرس، أيّ كائن حيّ يدبّ على وجه الأرض..

أخيرا بعد أن صار جسدي عجينة حقيقية وصلت ثقب الإبرة/المدخل، وتم السماح بعبوري عن طريقة دفعة قوية كادت تلقي بي أرضا.

جميل جدّا إذن.. يبدو أنني حطمت رقما قياسيا جديدا في ترجّع الإهانات خلال هذين اليومين.

في كل خطوة أخطوها ونفسٍ أتنفّسُه أتذكر الحاجة. كيف كانت تجتاز كل هذا وتعود لتمنحنا البسمة والأمل أنا وأيمن؟

لا أدري إن كنت سأستطيع المواصلة حتى الجبل، وقد صار ثقل السلع يقصم ظهري وأنفاسي متلاحقة. المرئيات أضحت مشوشة وشمس أكتوبر تصرّ على جعل وداعها أكثر حرارة.

تتجاوزني نساء كثيرات بسرعة رغم حملهن الذي تنوء به العُصبة أولو القوة. كيف يفعلن ذلك وهنّ أكبر منّي سنّا؟ بل إن إحداهن كانت تحث السير بقدم واحدة، متكئة على عكاز في الجانب الآخر.

توقّفت قليلا لالتقاط أنفاسي وتنهدت بكل ما أملك من قوة مستخرجة آخر ما تبقى من طاقتي ثم واصلت السير بسرعة لا بأس بها.

أخيرا وصلت. أخيرا سلّمت السلعة التي قال عنها الوسيط أنها "ناقصة".

- لماذا؟

- أين "الفائض"؟ إنه الربح الوحيد الذي لدينا أنا وأنت. حاولي في المرة القادمة أن ترتدي المعاطف والسراويل على قدر الاستطاعة. الأجر الذي يمنحنا "السي ميمون" لا يكفي لشيء.

ذكرني كلامه بأنني رأيت، دون تركيز كبير، مجموعة من النساء وهن يرتدين عشرات الملابس الجديدة مكدسة فوق بعضها البعض، كطريقة تهريب تؤتي أكلها وتحقق مزيدا من الدخل.

- سأفعل في المرة القادمة ولا شك.. اطمئن.

ووصلت البيت أخيرا. منهكة، مضعضعة، محطمة الأضلاع والعظام، لكنني على قيد الحياة.

بشرى تنظر لي في حذر كأنها تراني لأول مرة. أيمن يغط في نومٍ أهدته إياه بحكاية من حكاياتها.

- أنت بخير؟

- جدّا.. كيف أبدو لك؟

- ممتازة.. إذا استثنينا أنك تبدين كزومبي !

- شكرا.. معنوياتي كانت عالية والآن صارت في السماء..

تطلق ضحكة عالية وتحضنني مُحاولة منحي ما تملك من حنان.

- اتجهي مباشرة إلى الحمام لأخذ دوش وعودي إليّ لتحكي لي كيف مرّ عليك هذان اليومان.

- فقط استراحة خفيفة، وأفعل ما أمرتِ به..

أهوي فوق المرتبة دون أن أخلع ملابسي ودون أن أرتب المكان، قبل أن أغيب عن الوعي تماما.

لقد اختطفني الموت الأصغر ولم يعد هناك مكان لا للحمام ولا لبشرى.

عزيزتي ليلى،

أوّلا عزاؤنا واحد في الحاجة. الطيبات والطيبون يرحلون تباعا تاركين إيانا وسط عالم من الأوغاد، وليس أمامنا سوى التحمّل لعلّ أحدهم يقول عنّا يوما أننا كنّا من هؤلاء الطيبين عندما نرحل.

في حالات كهذه تبدو كلمات المواساة غير ذات جدوى. الطبطبة والحضن قد يكونان ذا جدوى، وهما ما لا أستطيعهما من مكاني.

عزيزتي ليلى،

إن كان للمدن توائم فإن توأم طنجة ستكون هي مدينة برشلونة. هيَ أيضا مدينة لعوبٌ متفلّتة، ذات روح. فجأة تشعر بها كأنثى تراودك عن نفسك، ولا تستطيع لها تمنّعاً ولا رفضا.

كيف نعرف أننا نحبّ مدينة ما؟ عندما نغادرها طبعا.

هكذا هو الثالوث: نغادر. نشتاق. نحنّ !

وعندما نحنّ ندرك أننا نحبّ. وأنا، بعد شوقي المستمرّ إلى طنجة، أجدُ شوقاً إلى برشلونة كلما غادرتها نحو أي مدينة أخرى.

قبل أيام زرت مدينة بروكسيل لأنجز ربورتاجا هناك، ولألتقي صديق الطفولة عبد الجبار.

بروكسيل مدينة كئيبة، لكنها هادئة. قلت لعبد الجبار أنني أحببت طرازها المعماري العتيق . نركب المترو دون أن ندفع، و عندما ألوم عبد الجبار يجيب متحجّجا "هو لا ينتظر ثمن تذكرتنا كي يتحرك على أية حال ".
أصمت أمام منطقه المجنون على مضض. لو ضبطنا فسيكون الأمر مخجلا بالفعل.
يقول عبد الجبار أنه كان مثلي في بادئ الأمر ثم اكتشف أن عبء ثمن التذاكر هذا أثقل بكثير مما تصوره ، خصوصا أنه مجرد طالب ، لذا آثر هذا الحل الفعال.
نظرت إلى تلك البلجيكية التي لم تكف عن التحديق في حذائها منذ ركبنا و كأنها تراه لأول مرة. ثم إنني حركت رأسي دلالة على عدم الاقتناع.
الكل هنا واثق من نفسه. أناس يتحركون وعلى جباههم كتب بالخط العريض " إننا نعرف ما نريد". لا أحد يلتفت إليك حتى و إن خطر لك أن ترقص وحيدا كذئب في وسط الشارع. فقط لا تزعج الآخرين وافعل ما شئت.
في بلدة "واترلو" شاهدنا عرضا مجسما لمعركة نابليون بونابرت الأخيرة. في واترلو كان على نابليون أن يعلن هزيمته، كان عليه أن يرفع الراية البيضاء.. لكنه لم يفعل فكانت النهاية !

صمت رهيب خيم على القاعة بعد انتهاء العرض.. بعضنا كان يسترجع معاركه الخاصة وهزائم روحه.
أنا لا زالت أمامي جولات كثيرة قبل أن يبدأ الحكم في العد لي حتى العشرة. على الأقل ما دمت حيا.
عبد الجبار يلعنُ كل مقرر مادة الحقوق التي أخذ إجازة فيها.. يلعنها و هو يغسل الصحون في المطعم الذي يشتغل به و أنا بقربه أتلذذ برؤيته يعارك الزمن و الأواني معا.

من مُجاز في الحقوق ينتظر أن يكون محاميا على الأقل، إلى غاسل صحون لا يشق له غبار.

هكذا كتب علينا أن نكون ..مجرد هاربين يتخيلون أنهم في مواجهة ما.. وبين الهروب و المواجهة نضع آلاف الأعذار و آلاف الأسباب و نجلس أمام التلفاز شاردين متسائلين: متى تجتمع الكرامة و الوطن معا في مكان واحد ؟
في ليل بروكسيل الجميل نخرج أنا و عبد الجبار لنتمشى الهوينى متلذذين بحواراتنا التي لا تنتهي وتحليلاتنا لكل ما يحدث حولنا: العائلة، الغربة ، الوطن.

كان على مراقبي المترو أن يفعلوها.. و قد فعلوا . ضبطونا متلبسين بدون تذكرة. عبد الفتاح أدى 55 يورو كغرامة لأنه يعتبر مقيما. أنا لم أضطر إلا لأداء 4 يورو لشراء تذكرة يوم كامل.
أقسمت بعدها أن لا ركوب بدون أداء.. أو لنمشيها خطىً. وما الضير؟ لم نعتبر يوما أن المشي رياضة ككل المترفين، بل هو عادة يومية كنا نمارسها دون تفكير. و قد آن الأوان ربما لتذكر الكيلومترات التي كنا نقطعها ونحن بعدُ أطفال.
انتهتْ رحلتي في بروكسيل وعدت إلى برشلونتي، حيث وجدت تكليفا جديدا من رئيس التحرير يهمّ إنجاز تحقيق استقصائي حول شبكة تهرّب فتيات قاصرات من دول شمال إفريقيا ثم ترغمهن على ممارسة الدعارة هنا ببرشلونة.

ورغم أنني قليل الإقرار بضعفي أو خوفي لكن دعيني أعترف لك، ليلى، أنني أشعر بالكثير من التوتّر والخوف من أن أفشل في المطلوب.

أرسل لي رئيس التحرير رقما، وعندما اتصلت به كان قد تم إلغاؤه تماما. هل أعود وأخبره بذلك وأعلن فشلي أمام أول اختبار حقيقي؟ يستحيل طبعا. فمن أين أبدأ يا ترى؟ والله لا أدري.

لا مصادر لحدّ الآن. لا نقطة انطلاق.

لا أدري أيضا لمَ أحمّلك معي هذا الهمّ فوق ما تحملينه. لكن لا أحد لي هنا يمكن أن أبوح له بهذا. السيد هشام مشغول بتقاريره وأكوام الأوراق الإدارية التي يتكفّل بها.

ما أنا متأكد منه أن رسالتي القادمة ستكون أطول.. وستحمل جديداً ولا شكّ. أعدك بذلك.

كل المحبّة..

المخلص عبدو – برشلونة

أضع رسالة عبدو جانباً وآلام متفرّقة تمزّق جسدي. أنهض وأنا أئن كعجوز أنهكها المرض والشيخوخة. أكان ما مررت به حلما؟ لكن الأحلام لا تترك أثرها في الجسد بل في الروح. وأنا كل ذرّات جسدي تصرخ محتجّة متألمة.

يُفتح الباب وتلج بشرى وأيمن:

- لا تقولي لي إنها الواحدة ظهرا؟

- إنها الواحدة ظهرا !

الحمّام الدافئ يعيد لجسدي بعض الطراوة والكثير من الراحة. أخرج من الحمام فأجد بشرى منكبّة على إعداد دروس الغد.

- اِرتاحي قليلا أولا، ثم عودي لأجواء الدراسة هذه..

- عندما أفعل ذلك أفقد خط الرجعة وأجد صعوبة في العمل من جديد.. لا عليك منّي وأخبريني أيتها الأميرة النائمة بتفاصيل حكاية سبتة..

بدون مقدمات حاولت أن أختصر لبشرى ما مرّ بي وهي تتفاعل بحماسٍ منقطع النظير كعادتها. بعينيها، بجسدها، بآهاتها التي توحي لي أنها تتألم فعلا للتوّ واللحظة..

- وأخيرا وصلتُ لنقطة النهاية وقبضت ثمن أول مغامرة لي، وها هو بين يديك فافعلي به ما شئت..

اتفقنا أنا وبشرى أن نضيف راتبها إلى أجوري المتقطعة، لعلنا نفي بحاجياتنا نحن الثلاثة..

- بالمناسبة ليلى، اللوحة التي عثرت عليها يبدو أنها لفنان بلجيكي شهير يسمى "جون فرنسوا بورتايل"، رسمها، في حدود سنة 1874، لفتاة طنجاوية اسمها "عويشة"، وهو كما تعلمين تصغير لاسم "عائشة". الحقيقة أنها مجموعة لوحات حملت اسم "عويشة.. موريسكية من طنجة"..

- وهذه واحدة منها مثلا؟

- لنقل أنها المفقودة من السلسلة.. فلا أثر لها بين اللوحات التي بحثت عنها في محرك البحث..

- إذن هو أحد المقلّدين المتحمسين حاول أن يضيف من عنده.. وأنت تعلمين ما نقول في طنجة "الزيادة من رأس الأحمق"..

- لا أظن أن مجنونا يرسم لوحة بهذا الإتقان.

تخرج بشرى اللوحة بحماس شديد وتفردها أمامي لنتأملها معا.

- جميل جميل.. يفترض الآن أن أدرك الفرق بين لوحة مزيفة وأخرى حقيقية مثلا؟

- نعم يفترض ذلك. أعرف أننا لسنا خبيرتان. لكن كل تفاصيل اللوحة، ونوعية قماشها يدلان أن هذا عمل قديم جدا ومتقن جدا.

- ما الذي تريدين الوصول إليه يا متحمسة؟

- لوحات هذا الفنان بيعت بمئات الآلاف من اليوروات، وإن صدق ظني وكانت لوحة حقيقية فنحن وأنت الآن نجلس أمام ثروة.

- هَبِي أنني سايرتك. كيف لنا أن نتأكد من هذا الأمر.

- دواءُ العيّ السؤال !

تخرج بشرى لقضاء بضعة أغراض وأستغل أنا لحظة القيلولة لدى أيمن وآخذ وقتاً مقتطعا للبحث عن هذه اللوحة التي لم يسبق لي أن سمعت عنها يوما.

نتائج البحث تشير إلى معلومات لا بأس بها عن الفنان وعن اللوحة نفسها.

يقول أحد التقارير الصحافية عن اللوحة:

"زار الرسام البلجيكي جان فرنسوا بورتايل المغرب في مناسبتين: الأولى كانت في العقد الرابع من القرن 19 ضمن زيارة عابرة إلى إسبانيا وإيطاليا والجزائر، والثانية كانت ما بين 1870 و1874 حيث قضى 4 سنوات بالمغرب.

ويعد بورتايل من الرسامين الكبار، الذين زاروا طنجة أكثر من مرة، ورسموا بها بعضا من لوحاتهم التي اشتهرت بشكل كبير، حيث عرضت في أشهر وأكبر المعارض العالمية.
واشتهر الرسام البلجيكي برسم البورتريهات، التي كان يستمدها من ملامح شخصيات حقيقية، وكذا طريقتهم في اللباس، لتكون مادته الأولية لتأثيث لوحاته بالريشة واللون.
وأثناء إقامته في المغرب أربع سنوات في الفترة مابين 1870 و1874، رسم بورتايل عددا من البورتريهات، خاصة بمدينة طنجة، كان أشهرها بورتريه لفتاة تدعى (عويشة)، حيث تضم مجموعته التشكيلية المعروفة بـ(الجمال المشرقي) أزيد من لوحتين للفتاة نفسها.
رسم بورتايل اللوحة التي أسماها (عويشة، موريسكية من طنجة)، سنة 1874، وهي تجسد مظهر فتاة جبلية ملتحفة بلحاف أبيض يغطي كامل جسدها وتضع (الشاشية) على رأسها، وفي ذلك تصوير دقيق للمرأة الجبلية ولباسها في تلك الفترة التاريخية.
توجد لوحات الرسام البلجيكي في العديد من المتاحف العالمية، من بينها لوحات (عويشة) التي تعرض في متحف الفنون الجميلة بمدينة مونتيريال الكندية وفي متاحف أخرى ببلجيكا. ويصنف بورتريه (عويشة) ضمن أفضل البورتريهات التي رسمها بورتايل".

إذن، لا زالت هذه المدينة تخبّئ لي الكثير من مفاجآتها. هذا كان من القرن قبل الماضي فقط. ترى، ماذا تخبّئ من أيام الفينيقيين؟ من زمن الرّومان؟

أتذكر نثراً تركه الكاتب الراحل محمد شكري يقول:

يحكون عنك أن طينة الخلاص منك،
وأن نوحا فيك قد تفيّأ الأمان،
وأنه حمامة، أو هدهد،

وأنه غراب..
وبين موجتين
تناسلت طنجة مثل زبد البحر !

نعم. تتناسل طنجة مثل زبد البحر يا شكري. لكنّها لا تذوب مثله. إنها تحفر عميقا في قلوبنا ولا تتركنا إلا وقد مزّق الوله قلوبنا.

ما قرأته عن اللوحة مغرٍ. ومكان عثوري عليها يوحي أن في الأمور أموراً. أتمنى أن تنجح بشرى في قتل هذا الفضول الذي بدأ يتغلغل في صدري.

آخر ما أحتاجه الآن هو أملٌ جديد ينتهي بخيبة.

تدخل بشرى لاهثة، راميةً الأغراض التي اشترتها كيفما اتفق:

- لن تصدقي ذلك يا ليلى. لقد جئتك من سبأ بنبأ.

- وحقًّا لو لم يكن خبراً يستحقّ فسأذبحك كهدهد سليمان.

- بلى إنه يستحق.. تعرفين صديقي محمّد الذي يشتغل بالمتحف الأمريكي بطنجة؟

- لا.. ولن يغيّر هذا من الموضوع شيئا.. أريد منك الأهمّ

- الأهمّ أنه متخصص في التحف والآثار، وقد أخذت اللوحة معي وقام بفحصها فحصا أوليا وأكد لي ما يلي: اللوحة تعود فعلا لخمسينات القرن التاسع عشر !

- هذا نصف الخبر.. الأهم هو إن كان راسمُها هو حقًّا الفنان "بورتايل" أم أنها مجرد تقليد، أو ربما لوحة أخرى صادف أنها تشبه "عويشة".

- لقد أرسل محمد صورة للوحة لخبير توقيعات وسينتظر جوابه.

- وإنا معه لمن المنتظرات.

- هيا بسرعة أيتها البغلة..

ينطقها حارس الأمن الإسباني بعجرفة شديدة وأنا أعبر من سِمّ الخِياط ذاك. أستدير نحوه وقد فاض بي الكيل بعد أيام متوالية من الإنهاك الجسدي والنفسي.

- حقًا؟ أنا بغلة؟ !

يرتبك للحظة أمام نظراتي وكلماتي التي أودعتها كلّ غضبي، قبل أن يتماسك من جديد ويلوح لي بيده أن انصرفي، فلا وقت لديّ.

لكن، بعد كل ما مرّ بي لم تعد لديّ أية رغبة في التجاوز أو التغافل.

- لا.. لن أذهب قبل أن تعيد على مسامعي ما قلت..

عمّ صمت رهيب المكان أمام هذا الموقف الذي جعل الأعناق تشرئبّ والأعين تجحظ مترقبة، بغير قليل من المتعة، ما سيحدث.

غلبت الأنفة الكاذبة الأمني الإسباني، خصوصا أمام العيون المترقبة، فرفع عقيرته مرة أخرى:

- قلتُ "مرّي بسرعة أيها البغلة".. ماذا ستفعلين؟

- لا شيء.. سآخذ معي بضع شاهدات من هنا وسنسجّل بك شكاية الآن بتهمة استعمال ألفاظ عنصرية بحقنا.. واصل عملك يا جميل..

تعالت الأصوات التي تعلن استعدادها لمرافقتي. آه لو يعلمن أنني لا أعرف لا مكان بناية الأمن ولا حتى كيف أسجل شكاية.

أترك عينيّ مثبّتة على عينيه فيعود الارتباك لوجه رجل الأمن، بينما يحاول مساعدوه المغاربة أن يهدئوا من روْعي:

- لا عليك منه.. اعذريه.. إنه جديد هنا..

- يستحيل أن أتحرك من هنا. ولتتوقف كل عملية العبور اليوم حتى يعتذر هذا الوغد.

يكابر الإسباني بالالتفات بحثا عن شيء ما. يبصق أرضا. يرفع رأسه في شمم. لكن دون جدوى. ارتباكه، وربما خوفه، لم يعد خافيا على طفل.

يجرّه المساعدون غير بعيد ويتبادلون معه أطراف حديثٍ يروم إقناعه باعتذار يجعل الأمور تسير بسلاسة بدل العرقلة التي سأخلقها ولا شك.

أخيرا، يتوجه نحوي الإسباني وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ويقول بصوت خفيض:

- حسنا، أعتذر.. يمكنك الرحيل

- إرفع صوتك أكثر.. لا أحد سمع ما قلته

- قلت أعتذر..

ألتفت أنا إلى الباقيات وقد أكسبتني الجولة التي ربحت مزيدا من الشجاعة:

- هل نسامحه؟

ترتفع الأصوات بين مؤيد ومعارض. فأرفع يدي في زعامةٍ لحظية مكتسبة فيسود الصمت فعلاً.

- هل تعرف ما يميز أنثى الذئب أيها الغرّ؟

-.......

- أنها لا تأكل الجيفة، وأنها تكون أخطر من الذكر عندما تحمي أبناءها !! وفي المرة القادمة عندما تريد مناداة إحدانا، نادِها بـ"الذّيبة".. تريدها بالإسبانية؟ إذن ناديها بـ"اللوبا".. سوموس لوباس.. أتفهم؟ سوموس لوباس..

- لوباس.. لوباس.. لوباس...

تعالت الصرخات مؤذنة بعزة نفسٍ قتلتها الإهانات ومكرُ الليل والنهار. إن كان ولا بد من أن نتعب هكذا فليكن ذلك بقليل من الاحترام والكرامة.

تنحّى الأمني الإسباني جانبا وهو منكّس الرأس، غاضب، تارك للمغاربة تنظيمَ حركة العبور.

فكرت أنه يمكن أن أستغل هذه الفرصة الذهبية لترسيخ فعل قد يصبح عادة. التفت إلى المنظمين قائلة:

- أليس هناك طريقة أفضل من هذا التكدس القاتل؟

- كما ترين، إنهن لا يستجبن لأية محاولة تنظيم..

- ماذا لو تركت الأمر لي؟

على مضض تنحى المغربي جانبا منتظر ما سأقوم به. ومرة أخرى رفعت يدي وصوتي عاليا وأنا أصيح:

- فليتوقف الجميع رجاء..

كانت الهيبة التي نلتها خلال دقائق لا زالت تحلّق فوق رأسي فتلقيت للتو استجابة سريعة. توقف الجميع ونظروا لي منتظرين ما سأحمله من جديد بينما، بطرف خفي، رأيت الأمني الإسباني ينهض وقد أهانه أنني أخذت مشعل التنظيم بدلا عنه.

- هل يمكن للرجال أن يتجهن يمينا والنساء يسارا؟

استجاب لي الجمع بصعوبة، لكن النتيجة كانت جيدة في الأخير.

عدت لأتخذ بين المجموعتين مكانا وسطا وأنا أقوم بترتيبهن واحدا تلو الآخر، واحدة تلو الأخرى، بما سمح لي تقديري لأسبقية هذا أو تلك..

أخيرا نجحت في تحويل التكدس القاتل إلى صفين منظمين.

- الآن لن يتحرك أحد حتى يسمح له رجل الأمن، الواحد تلو الآخر، وخلال دقائق سنكون قد خرجنا جميعا..

نوع من الرضا يبدو على وجه الأمني الإسباني وقد خوّلتُ له استعادة السيطرة على الأمور، بينما بقيت أنا واقفة منتظرة عبور الجميع.

فعلا لم يستغرق الأمر أكثر من 15 دقيقة. فجأة بدا للجميع أن تلك الفوضى لم تكن مبرّرة. وجهت كلامي هذه المرة إلى المساعدين المغاربة:

- في العبور القادم احرصوا على أن يكون المبدأ "من يأتي أولا يرحل أولا".. ضعوا هنا حواجز حديدية تسمح بتشكيل صف منظم، وأنتم أيضا ستظفرون براحة لا مثيل لها بدل كل هذا الضجيج والمعاناة التي أسفرت عن ضحايا ووفيات..

بامتعاض ينظر إلي الأمني الإسباني مجددا ولسان حاله يقول "من تظن هذه نفسها؟"..

أرسلتُ رسالة عبر البريد الإلكتروني لعبدو أروي فيها ما حدث، آملة أن يكتب عن الواقعة وأن يرسّخ في الإعلام الإسباني كلمة "لوباس" بدل "مولاس".

لسنا بغلات، والأثقال التي نحملها هي جزء من دورة اقتصادية يستفيد منها المئات وربما الآلاف. ولو توقّفنا عن العمل لبدأت مدينة سبتة تئن تحت وطأة أزمة مالية لا قبل لها بها.

باستثناء الرسائل التقليدية المطوّلة التي نُطنِب فيها كما نشاء. بدأنا أنا وعبدو نتبادل الرسائل عبد البريد الإلكتروني. خصوصا بعد أن بدأ عبدو الاستقصاء حول مسألة تهريب القاصرات وأصبح أكثر حاجة للتواصل الفوري.

كان في حاجة لإيجاد طرف خيط ينطلق منه ولم يكن يجد غيري ليوافني بجديد تقريره.

بينَ أوراقٍ مهملة كانَ أنْ وجدتُ تلك اللائحة التي أخذتها يوما من مكتب "أفلام الإباحية" ذاك. أرسلتها لعبدو أملاً في مساعدةٍ لم تبدُ لي حقا ذات جدوى.

عزيزتي ليلى،

شكرا على اللائحة. أرغمتني أخيرا أن أقتني هاتفا ذكيا كي أرسل لكل تلك الأرقام رسائل خاصة عبر برنامج المحادثة الفوري.

لحدّ الآن أغلب الأرقام يبدو أنها لم تعد مستعملة. هناك رقمان فقط تلقّيا الرسالة فعلا. واحدة اطلعت عليها فعلا، والأخرى ليس بعد.

قلت لهما أنني زبون وأنني أرغب في ليلة متعة، راجيا أن تكون مغامرة موفقة وتوصلني لأي معلومة أنطلق منها.

أخيرا، ردت إحداهن أمس. هي تتواجد ببلدة "سالو"، غير بعيد عن مدينة "طاراغونا"، واسمها سناء.

ركبت القطار وأنا أمنّي النفس أن أكون قد وضعت يدي فعلاً على بداية معقولة. الطريق الساحلية من برشلونة إلى سالو مغرية بالتأمل.

الأسرة التي تجاورني في القطار كانت منقسمة.. الأب والأم يتحدثان والبنتان تقرآن كتابين. قدرت أن عمرهما لا يتجاوز 16 سنة، لكنهما كانتا منغمستين تماما في القراءة.
حسناً، لم أكن نموذجاً سيّئا وكنت منشغلا بدوري بالقراءة في هاتفي..
هناك، على بعد أمتار، يربّتُ صينيّ من حين لآخر على كلبيْه الأنيقين والجميليْن جدا. عندما هممتُ بالخروج فكّرت بمداعبتهما لكنني تراجعت. أمزجة الكلاب لا تستطيع أن تضمنها.

من حسنات الهواتف الذكية التي اكتشفتها أيضا أنها ترشدك أيضا إلى العناوين بدقة عن طريق الـ"GPS". يبدو أن كوني رجلاً تقليديا أضاع عليّ الكثير.

ملهى "لاريبوبليكا" يتواجد على بعد حوالي 300 متر من محطة "سالو" الصغيرة. هناك يفترض أن ألتقيَ سناء.

الملهى ضاجّ صاخب. وهناك الكثير من الأضواء الحمراء المتقطعة التي تعمي الأبصار، ولا أدري كيف يحتملها هؤلاء الزبائن.

أختار مائدة صغيرة خالية من أي زبون وأشعر سناء بمكاني من خلال رسالة فورية، منتظرا قدومها.

نظرات ريبة لا بأس بها أشعر بها ترمقني من هذا أو تلك بين الفينة والأخرى. إما أنه مكان لا يزوره المغاربة أو أن الزبناء الجدد غير مرحب بهم هنا.

أخيرا جاءت سناء. فاجأني أنها صغيرة السن فعلا. الماكياج المبالغ فيه لم ينجح في إخفاء سنّها ولا حزنها الخفيّ. على الأقل بالنسبة لشخص يتوقّع ذلك.

- أنت مغربي؟

- نعم

- من أي مدينة؟

- من طنجة..

- أنا من الدار البيضاء.. عموما ثمن الساعة كما أخبرتك 100 أورو. هل هناك مكان نذهب إليه أم نكتفي بإحدى الغرف الخلفية للملهى.

-الحقيقة أنه لدي مكان، لكنه يوجد بمدينة برشلونة، هل يمكنك الانتقال معي إلى هناك.

- لا أظن ذلك. ممنوع علينا مغادرة البلدة.

- من يمنعكم؟ ومن تقصدين بـ"نا"؟

هنا توقفت سناء عن الكلام والشرب ونظرت إليّ مطوّلا بشكل انتزع منّي ارتباكاً نجحت في إخفائه طيلة المحادثة.

- حسنا. أخبرني أين تقيم وسأزورك. لكن ليس الليلة، فلدي زبائن آخرون في الانتظار.

- يبدو أن برشلونة بعيدة بالنسبة لك. سأقيم إذن، في المرة القادمة، بأي فندق هنا ونلتقي به متى شئتِ.

لم أجد بدّا من الاستجابة لها، خوفاً من فقدان الخيط الوحيد الذي عثرت عليه. آمل ألا تمنعها الريبة من زيارتي فعلا.

عموما سأبقى على تواصل معها في انتظار ما ستحمله الأيام القادمة من جديدٍ سأوافيك به ولا شك.

كنت أريد أن أوصيك بالحرص أكثر في عملك بسبتة، لكنّني أعود لنفسي مرة أخرى وأمنعها من التذاكي والتظاهر بالتعاطف، ما دمت لا أملك بديلا.

قمت كما طلبت مني بنشر قصاصة في موضوع "الذئبات" (هل تعلمين أن اسم أنثى الذئب في اللغة العربية هو السّرحانة؟). الموضوع حقق مشاركات لا بأس بها على مواقع التواصل.

الجميل جدا أن رئيس حكومة سبتة تناول الموضوع في خضم حديثه أمام نواب المدينة، ولو عبوراً.

أتوقع أن تتواصل ارتدادات الحجر الذي ألقيتِه في البركة، يوما عن يوم.

أنا سأواصل العمل على تحقيقي. النظرة التي رأيتها في عيون سناء تركت في قلبي أثرا. هناك الكثير جدا من الحزن والألم. إنهم يتاجرون بهنّ هنا ولاشكّ. يستعملونهنّ كأشياء.. كأكوام لحم لا أكثر.

لن أرضى هذا لبنات بلدي ولا لأي أنثى في هذا العالم، ما دمت قادرا على تغيير ذلك.

في بادي الأمر تأففت كثيرا من هذا التكليف، لكنني الآن أصبحت مصرّا على المضي قدما في إنجاز هذا التحقيق ولو كلفني ذلك حياتي.

أصبحت الجميع يطلق علي لقب "الديبة". فجأةً أصبحت شخصية شهيرة بين المهرّبين والمهرّبات، وحتى بين الجمركيين والأمنيين من الجانبين، الإسباني والمغربي.

النظرات الموجهة إليّ تتفرّق بين إعجاب وبغض. العلاقة بيني وبين "بابلو"، الأمني الإسباني، لم تعد بذلك الجفاء.

مرت أيام قليلة قبل أن يتم تغيير منصبه كعقوبة له على عنصريته المفترضة تلك. أصبحت ألتقيه قرب إحدى إشارات المرور بالمدينة فنتبادل التحايا كأي صديقين.

في أحد الأيام كان قد أنهى دوامه فقررت أن ألغي التزامي وأن أشرب معه كأس قهوة. تحدثنا عن أشياء كثيرة تحدث بباب سبتة.

- أرأيت أنني إنسانة ولست "بغلة"؟

- لا أدري كيف أجدد اعتذاري لك. التعوّد يقتل كل المشاعر. إنها كلمة نقولها ولا نعيها. المعاناة والتعب والتكرار تخلقان لدينا غضبا دفينا قد يتفجر كلاما عنصريا كما حدث معك.. علما أنني لم أكن أقصده حقا.

- أعتقد أن أغلب مشاكل هذا العالم سببها سوء الفهم. قلة الإنصات للآخر. ها نحن ذان.. أنا وأنت.. نجلس وننصت إلى بعضنا البعض، وهاهي الحياة – كما ترى- تبدو سهلة بسيطة لا تحتاج كل ذلك التعقيد.

افترقنا وذهبت لأتجول في شوارع المدينة. هناك، قرب الساحل، تمثال ضخم يمثّل "هرقل"، العملاق الطنجاوي الذي يقال أنه قام بالفصل بين القارتين الإفريقية والأوربية بذراعيه العاريتين. مغارة هرقل في طنجة لا زالت شاهدة على الأسطورة، وأمواج البحر هناك لا زالت تردد صدى صرخته.

أسماء الأحياء تتنوع بين ما هو عربي وإسباني.

أحيانا، تمنح لي سلطة تنظيم عبور المهرّبات أيضا، كلما عادت الفوضى إلى المكان.

منذ مدة لم تعد تصلني رسائل عبدو لا عبر البريد التقليدي ولا الإلكتروني. لعله انغمس حتى النخاع في تحقيقه ذاك. الموضوع حسّاس ولم يتسنّ لي أن أوصيه بأخذ الحذر أكثر وأكثر.

أرسلت له رسالة أخبره أن سناء التي التقاها هي، في الغالب، نفسها الفتاة التي تعرّفت عليها في مكتب التشغيل الوهمي، لكنني لم أتلقّ ردا.

من حين لآخر، يحضر أحد رفاق المهنة ليخبرني أن خبراً هنا وخبرا هناك قد كتبا عنّي. "الديبة" تكاد تصبح علامة تجارية في هذه المدينة الصغيرة.

يسعدني ما حققه ذلك من نتائج، لكنني أتحفّظ. شهرة وسائل التواصل كفقاعة صابون. في الغد ينساك الجميع وتستفيق على صدمة موجعة: أنت لم تكن نجماً، بل وسيلة لتجزية الوقت.. مثل أي فيديو يثير الضحك لفترة ثم ينساه الجميع.

"عويشة الموريسكية" أصبحت موضوع حديثنا الرئيسي أنا وبشرى. أصبحنا نعلم كل التفاصيل عن الفنان "بورتايل" وعن اللوحات التي رسمها.

يرنّ هاتف بشرى فتجفل من مكانها قبل أن تعتدل وهي تبعد الهاتف عن عينيها لترى من المتصل.

- إنه محمد. من المتحف الأمريكي..

- أسرعي بالرد إذن.. وإيتنا بالخبر اليقين..

تنصت بشرى إلى حديثٍ يأتيها من الجانب الآخر، مكتفية بالـ"آه..آه" كتعليق. تنتهي المحادثة فأنظر إلى وجه بشرى باحثة عن إجابة.

كل ملامحها توحي بالإحباط إلا عينيها. الصّبّ تفضحه عيونه.. والصديقة الحميمة أيضا !

في عينيها أرى فرحة وفي ملامحها أرى عكس ذلك. تفشل بشرى فشلا ذريعا في التمثيل أمامي، لهذا تعلن استسلامها قبل أن تبدأ في خطة "الإحباط ثم الفرحة"..

- أيتها اللئيمة لا تتركين لي فرصة لمفاجأتك.. كما لعلّك توقعّت.. نعم.. التوقيع أصلي.. اللوحة تعود فعلا لـبورتاااااا.....

لا تستطيع بشرى إكمال كلماتها وسط صرخاتي وأنا أقفز عليها وأضمها. نسماتُ فرحةٍ غائبة أصبحت تدور في فلك هذا البيت أخيرا.

تتواصل هيستيريا الفرحة بيني وبين بشرى ونحن نقول ما نعنيه وما لا نعنيه. نحلم.. نتمنّى.. نخطط..

أيمن ينظر إلينا في ذهول غير فاهم.

بعد أن مضت حمّى البهجة، جلسنا نلتقط أنفاسنا ونحن نحاول أن نهدأ وأن يصدر عنا، أخيرا، كلام عاقل رزين:

- كيف يمكن الاستفادة من اللوحة بشكل صحيح في نظرك..

- ببيعها طبعا..

- ذاك ما أقصده.. كيف يمكن بيعها ولمن؟

- أخبرني محمد أن المتحف الأمريكي قد يكون مهتما باقتنائها. وعد أن يسأل المدير ويرد عليّ..

- تحولت الحياة إلى انتظارات لهواتف محمد. لا بأس بذلك. ما يسعدني حقا أنني عثرت على أثر من آثار هذه المدينة بيديّ هاتين. في نظرك، كيف يمكن أن تستفيد طنجة أيضا من اللوحة؟

- لا أرى أفضل من اقتراح محمد. أن تعرض في المتحف الأمريكي حيث يمكن للجميع رؤيتها..

- صدقت.. !

هاتف آخر يرنّ. كم أصبحت الحياة صاخبة بشكل مزعج حقًّا.

- آلو..

- مرحبا.. أنت سينيورا ليلي؟

- نعم.. أنا هي.. من معي؟

- أنا من ديوان رئيس حكومة سبتة.. يشرفني أن أعلم سيادتكم، نيابة عن الرئيس، أن الحكومة قررت منحكم جنسية فخرية للدولة الإسبانية نظرا لموقفكم المشرف ضد العنصرية. سنقيم لكم حفل تسليم للجنسية الأسبوع القادم. رجاءً إخبارنا باليوم الذي يناسبكم..

تأتي الأفراح، كما المصائب، تباعاً..

بقيت ذاهلة لوهلة طويلة وبشرى تنظر لي بعينين متسائلتين. أخيرا، يبدو أن كل ما تراكم في الصّدر من حزنٍ وفرح لم يعد محتملا، ففعلتُ ما يفترض بفتاة تحترم نفسها أن تفعله: هويتُ فاقدة الوعي !

- من حق الإعلام أن يستعمل كلمة "البغلات" كتوصيف شائع للمهرّبات، رغم تحفظنا على ذلك، لكن أن يصدر ذلك عن رجل أمنٍ يفترض به حماية كرامة كل العابرين إلى سبتة، فهذا مرفوض بشكل مطلق. لذا فقد تم استحق المعنيّ عقوبة إدارية بينما استحقت السيدة المحترمة "ليلى" جنسية إسبانية فخرية.

سينيورا.. اسمحي لي بتوسيمك بوسام الشرف وتسليمك الجنسية الإسبانية..

نعيد أنا وبشرى مشاهدة فيديو حفل تسليم الجنسية. لو أخبرني أحدهم، قبل أسابيع فقط، أن هذا سيحدث لاتهمته بالخرَف.

تقول بشرى:

- بدوت متألقة وواثقة جدا. تستحقين وساما هنا أيضا في وطننا. لقد رفعت رأس كل امرأة مغربية عاليا. الجميل جدا أنك فعلت ذلك بكل عفوية ولم تكوني تنتظرين من أحد جزاء ولا شكورا.

أخبرتني بشرى أن المتحف الأمريكي سيقيم مزادا علنيا للوحة، شرط أن يعلن أنه مالك اللوحة. لو نسبناها لأنفسنا فسنكون أمام مشاكل قانونية لا تحصى. هذا ما أسرّ لها به محمد.

- أليس هذا تحايلا؟

- تحايل مشروع طبعا..

- تعتقدين؟

- متأكدة..

بهذا الحوار المقتضب حسمنا أنا وبشرى الموضوع. أحيانا، الحديث عن الخطأ والصواب يكون مبتذلا جدّا. في ذهني تتردد عبارة من رواية "الجوع" لــكنوت هامسون "الضمير؟ دع عنك هذا السخف. فأنت أفقر من أن يكون لك ضمير. أنت جائع".

بعد أيام من الانتظار المرهق، جاء اليوم الموعود وانطلق المزاد بحضور مجموعة من الأجانب المقيمين بطنجة، وبعض عشاق "بورتايل" الذين حضروا من دول أخرى إثر إعلان المتحف عن المزاد.

أعلن موظف بالمتحف بدء المزاد برقم جعلني أضغط كفّ بشرى بكل ما أوتيت من قوّة لدرجة أنها تأوّهت في ألم. 50 ألف دولار بالتمام والكمال.

مرت لحظات صمت قبل أن ترتفع أول كف معلنة رقما جديدا.. 55 ألفا.

توالت بعد ذلك الأكف المرتفعة والأرقام المتصاعدة باطراد..

- 99 ألفا.. آلا أونا.. آلا دوّي.. آلا تري..

وفاز أحد البلجيكيين بالمزاد أخيرا. أخبر محمد بشرى لاحقا أن المتحف سيأخذ عشرين بالمائة من المبلغ والباقي لنا حلالاً زُلالاً.

الأروع من كل هذا أن مشتري اللوحة قرر تركها معروضة بالمتحف الأمريكي، رهن إشارة كل عشاق لوحات "بورتايل" بطنجة، شرط أن يأخذها متى أراد ذلك.

هذا قد يخفّف قليلاً قلق ضمير الجياع أمثالنا !

في القلب رغبة في التخلص من كل الذكريات السيئة دفعة واحدة. هو نفس الشعور الذي ينتابك عندما تتناول طعاما فاسدا وترغب في استفراغه كلّه لتستريح بعدها معدتك ثمّ جسدك.
الذكريات السيئة ثقلٌ ينوء بالعصبة أولي القوّة، لهذا أريد أن أتخلّص منه وأبدأ في مرحلة أخرى. مرحلة القوة، مرحلة استعادة الثقة بالذات.
هواء طنجة العذب يدخل من النافذة المفتوحة فيحرّك الستائر ويحرّك الكثير من المشاعر المخبوءة بداخلي.. أتساءل أحيانا بكلّ جدية:

لو لم أكن أعيش في هذه المدينة المجنونة.. أكنت سأحتمل حقا كلّ ما مرّ بي؟
فقط جولة بكورنيش المدينة كانت دائما تعيد لي الكثير من الأمل. طنجة مدينة باذخة، ساحرة، تمتلئ جنونا وهواءً لذيذا.

أتمشّى بالكورنيش تاركةً لرذاذ البحر مداعبة وجهي كيفما شاء. صوت الأمواج وهي تتكسّر يكسر أشياء بداخلي ويُحيي أخرى..
عندما أعود للبيت أشعر أنني كنت بجلسة علاجية، وأنّها أثمرت فعلا.. تصوّر أن تكون طنجة هي طبيبتك النفسية، وليس عشرات الأطباء النفسانيين الذي تكتشف لاحقا أن أغلبهم يحتاج لعلاج حقيقيّ!

أتذكر، بقلقٍ لا يفارقني، عبدو الذي غابت رسائله بشكل كلي. رسائل المحادثة الفورية لا تصله وهاتفه مقفل. أحصل على رقم أخيه فيصعقني بحقيقة أن التواصل غائب مع أسرته أيضا.

أصارح بشرى بمخاوفي فتطمئنني بكلام تعرف أنه لا يسمن ولا يغني من قلق.

طرقات خفيفة على الباب تستجيب لها بشرى بخفّة حركة كعادتها. أسمه همهمة قبل أن تعود بشرى بمظروف أصفر في يدها وتسلمني إياه:

- إنه لك..

أفتح المظروف فيطل منه جواز سفر أحمر الغلاف. لقد وصل إذن وأصبحت مواطنة إسبانية بشكل رسمي.

- هل تعلمين أنك تستطيعين ولوج 26 دولة، دون تأشيرة، بجواز السفر هذا؟

بشرود أنظر إلى بشرى وقد سرح تفكيري فيما قالته. تنجح في قراءة أفكاري كالعادة وتصيح بهلع:

- لا يمكن أن تفعلي ذلك يا ليلى. نحتاجك أنا وأيمن مثلما تحتاجين لنا.

- إنها الطريقة الوحيدة لقتل هذا القلق الذي ينهشني نهشاً..

- ستضيعين وقتا وتخسرين مالاً دون جدوى. هناك آخرون ينبغي أن يقوموا بهذا.

- نعم هناك دائما آخرون.. "الجميع" يعتقدون أنه على "أحد ما" أن يقوم بما لم يقم به "لا أحد". هذا ما تقوله قصة إسبانية قصيرة جدا في تعبير عن البيروقراطية البشعة. فهل نفعل مثلهم؟

- ليلى.. هل تحبينه؟ !

تتقن بشرى هذا النوع من "العلاج بالصدمة". أحيانا عندما تجد نفسها أمام باب مقفل تلقي ما لديها، غير آبهة بما سيحدث بعد ذلك.

سؤالها جمّدني كما تجمّد نظرات الأفعى فريستها. لدقائقَ طوال وقفت لا أدري ما أقول وما أفعل.

أمام الغرباء يمكنك أن تجيب بما تشاء كيف تريد. لكن مع المقربين منا جدا يصعب أن تكون الإجابات الاعتيادية كافية. ما سألتْ بشرى إلا لأنها تعلم شيئا، أو رأت شيئا، أو أحسّته..

أنقذتني من حيرتي وجمودي بسؤال ملتوٍ:

- هل تعرفين كم تكلّف رحلة محترمة إلى إسبانيا؟

حِرتُ جوابا مرّة أخرى وأنا أتصفح الرسالة التي وصلتني فجأة وقطعتْ حبل أسئلة بشرى. أكشف لها محتوى الرسالة وأنا أبتسم بانتصار منتشٍ:

- هاك الجواب..

"لقد تم تحويل مبلغ 80 ألف دولار إلى حسابكم البنكي التالي.... من طرف مؤسسة "المتحف الأمريكي"

- ألف مبروك ليلى.. فُرجت وكنت أظنها لا تفرج !

- ألف مبروك لنا معاً.. هذا الحساب البنكي سيكون مشتركا بيننا حتى يقضي الله أمرا مفعولا !

- عموما فكّري جيدا قبل أن تقدمي على السفر يا ليلى.. الأمر ليس لعبة كما يبدو.. أنت لم تسافري لوحدك قبل اليوم كما أنك..

- ماذا عن أختك المقيمة هناك؟

- ماذا عنها؟

- ألا تستطيع رعاية أيمن رفقة أبنائها أثناء قيامنا بالبحث؟

الشمس المشرقة تتوسّط سماء مدينة برشلونة رغم أن الشهرَ هو فبراير. كان من حظي أن تختفي الغيوم السوداء خلال تواجدي هنا. يبدو الطنجاويون المقيمون هنا مرتاحين ولا يعتبرون إقامتهم "غربة". صدق عبدو عندما وصفها بتوأم طنجة.
الجوّ في ساحة "الرامبلا" حماسي جدا، وأشكال التسلية لا تنتهي. طبعا، كان هناك الكثير من المغاربة ممّن يتدبّرون رزقهم بطرق مختلفة. بعضهم يستعرض مهاراته في الأكروبات وآخرون يتظاهرون بالجمود كتماثيل، فإذا وضعت في أكفهم مبلغا من المال تحرّكوا ثم عادوا إلى وضعهم السابق.

التقاط صورة بجانبهم هو أيضا أمر مكلّف. لاشيء مجّاني، لكن أيضا لا شيء سيّء هنا، والمتعة والتسلية هما سيدتا الموقف.
كنت أرمق كل هذا بذهول وأنا أكتشف لأول مرة القارة العجوز وتفاصيل بلدانها ومدنها، في وقتٍ كان السفر إليها لازال صعبا والحصول على التأشيرة أمرا يكاد يقترب من المستحيل بالنسبة للبعض.
أحدهم كان يجلس في الهواء بكل ارتياح ممسكا بعصاه. وقفت أتأمله مشدوهة أحاول أن أفهم كيف استطاع أن يفعلها. فيما بعد سأفهم أن الأمر يتعلق بحيلة بسيطة جدّا لا يلتفت إليها أحد أمام سطوة الدهشة والانبهار.
المياه تترقرق أمامنا في المطعم الذي تناولنا به وجبة العشاء. تصرّ بشرى على منح النادل 5 يورو كاملة كبقشيش..

- نحن سياح ولسنا مهاجرين سريين.

تقول مبررة هذا الإسراف المباشر.

كنا قد تدبرنا أمر تأشيرة بشرى وأيمن بسهولة. استغليت فترة العطلة المدرسية وأخذتها معي هي وأيمن. فكّرت في تركهما ورائي، لكنّ ذلك كان سيضاعف غربتي المؤقتة وشوقي.. لهما ولعبدو.

أصرّت بشرى أن نقيم عند أختها لكنني فضلت حجز فندق، على أن تتكفل أختها برعاية أيمن، وذلك ما كان. نحتاج الكثير من الحرية في التنقل والبحث. والأسئلة الكثيرة ستعرقلنا.

بنظام الـ"GPS" نبحث أنا وبشرى عن عنوان إقامة عبدو الذي كنت أراسله عليه. أخيرا نصل إقامة من 4 طوابق يفترض أنه يقيم في طابقها الثالث.

نضرب الجرس وننتظر.. الثواني تبدو طويلة طويلة قبل أن نسمع أخيرا صوت متحشرجا يسأل بالإسبانية عمن هناك:

- هل عبدو موجود؟

- عبدو؟ آه.. تقصدين عبد الرحيم؟ لا هو غير موجود.. منذ شهرين تقريبا وهو بفرنسا من أجل عمله..

- فرنسا؟ لكن... هل تسمح لنا بالصعود لسؤالك.

يأتينا الصمت كردّ قبل أن تفتح باب العمارة أمامنا معلنة بأزيزها أنه قد أُذن لنا بالصعود. نجد الباب مواربا فنتردد قبل أن تدفعني بشرى أمامها بحجّة أننا لم نقطع كل هذه الطريق لنقف هنا. لن نحصل على أية إجابات بهذا التردد.

ندخل فيبدو أمامنا أحد الأشخاص منحنيا يحاول ترتيب صالة الشقة الصغيرة كيفما اتفق. يستدير إلينا فترتفع حاجباه في دهشة:

- آه.. مغربيتان؟ هل أنتما من عائلته؟

- أنت حسن؟

- نعم.. أنا هو.. يبدو أن اللئيم عبدو لا يخفي شيئا.

يشير إلينا بيده أن اتخذا مجلساً لكما دون تكلّف فنفعل.

- ألا يتواصل معكما؟

- لا.. هل يتواصل معك أنت؟

- منذ أخبرني أنه ينجز تقريرا في فرنسا وأنه قد يغيب لشهور لم أعد مكترثا بالسؤال عنه بصراحة.

- هو أخبرك بهذا..

- نعم. في رسالة قصيرة واحدة لم أسمع عنه بعدها..

الأمر مريب جدا وغير مطمئن إطلاقا. لا يمكن ألا يراسلني عبدو كي يخبرني بأمر كهذا. شكرنا حسن وانسحبنا نضرب أخماسا في أسداس.

ما الذي حدث يا ترى بعد لقائه مع سناء؟ مثلما كانت طرف خيط انطلق منه ستكون أيضا طرف خيط لي للبحث عنه. أخبر بشرى بذلك فتقفز هلعا:

- لا تقولي لي أنك ستذهبين للملهى الذي تتواجد به؟

- نعم سأفعل ذلك، ولا أطلب منك مرافقتي. أريد أن يجد أيمن شخصا بجانبه لو ساءت الأمور بشكل ما.

- لا داعي لهذا الكلام المرعب. سيظهر عبدو ولن نضطر لهذا الوضع الملحمي الذي تصفينه.. لكنني أشدّد علي ألا تذهبي رجاءً..

- كنت أتمنى ذلك. هل ترين أمامي حلاً آخر؟

تصمت بشرى إيذاناً ببدء مرحلة بحث سأخوضها وحيدة آملة أن تفضي إلى أثر لهذا الرّجل الذي اعتقدت أنه صديق فقط، قبل أن توقظني بشرى بسؤاله السّافر المباشر ذاك.

هي أجواء الحافلات التي تنقل الطلبة إلى الكلّيات والتي لا تخفى على مَنْ مرّ مِن تلك المرحلة..
الكثير من الصخب والزحام وروائح العرق الممتزجة بعبير الكثير من العطورِ الأنثوية والقليل من تلك الخاصة بالرجال..
أنا ممّن يعشقن الحفاظ على أماكن محدّدة في كل مكان أكون فيه.. في المُدرّج أختار مقعدا وأجلس به دائما.. في البيت لديّ ركن خاص في غرفتي أحبذ أن أقضي معظم وقتي به..
وفي الحافلات أنسلّ بمجرّد دخولي بين الأجساد المتلاصقة لأصل إلى ركن قصيّ يروقني بشدة بحيث أتكئ بظهري على معدن الحافلة وأترك لعينيّ تأمل ما يحدث أمامي..
في المحطة الموالية يصعد عبدو.. بطرف خفّي أراقبه وهو يبحث عنّي بين الركّاب. تقع عيناه عليّ فيتدافع ليصل ويقف بقربي..
-صباح الخير..
-صباح النّور..
-أقلقتني عليك بشدّة، لم تردّي على اتصالاتي أمس..
-فاجأني بعض التعب فنمتُ دون أن أشعر..
-لا عليك.. المهمّ أن تكوني بخير..
ننزل من الحافلة وأمامنا تتوقف سيارة "أسعد" الفاخرة..
بتباهٍ ملحوظ ينزل منها وهو يتظاهر أنه غير مبالٍ بنظرات الإعجاب والحسد.. الإعجاب من الفتيات نظرا لوسامته وثرائه..والحسد من بعض الشباب لنفس السّببين السابقيْن.
أسعد من النّوع الذي يعاني تضخّما كبيرا في الأنا. عندما ينظر إلى إحداهن يعتبر أن ذلك منّة منه، ويتوقع أن يكون أول ما تفعله هو أن تقع صريعة هواه.
ولا أخفيكم أن ذلك ما كان يحدث في أغلب الأوقات..
هذا النوع بالضبط كان يحلو لي أن ألهوَ بأعصابه.. وأن أستفزّه بالكثير من اللامبالاة..
طبعا كان يصاب بالجنون ولا يكاد يصدّق ما يحدث له. عموما كنت أتجنّب التقاء عينيْنا. وإن التقتا كان يجد فيهما الكثير من السخرية والتهكّم..
كان يتحيّن الفرصة لمحادثتي ولو بشكل عابر وأنا أجعل تلك الفرصة نفسها، على ندرتها، سهلاً ممتنعاً.. يتصرّف معي بالكثير من اللباقة والذوق.. وكلاهما أدركُ جيّدا أنها سلاحان فتّاكان استعملهُما كثيرا مع أخريات..
ولأنني أنثى، كنت في أوقاتٍ نادرة، أشعر ببعض الرضا عندما يفعل ذلك، لكنني – بعين العقل – أعود وأنظر إليه لأرى من جديد أذنا الذئب وقد استطالتا فوق رأسه فأستعيد وعيي ونظري الثاقب من جديد..
في أحد الأيام، كنا نجلس معا في الكلية على شكل مجموعة.. أسعد يحاول التقرب مني وأنا أصده دون أبدي رفضا واضحا. عندما تلتقي عينانا يبتسم لي فأتجاهله. عندما يحدثني أجيبه بشكل مقتضب لكن بأدب.
أدرك جيّدا أنه الآن يقدم رجلا ويؤخر أخرى.. فجأة، تفرّق الجمع بطريقة تكاد تكون مقصودة لأجد نفسي وقد بقيت وحيدة معه. تنحنح ألف مرة بينما أنا أحاول ما أمكن ألا تلتقي عينانا..
أخيرا تكلم بصوت مبحوح..
-كنت أريد أن أكلمك في الحقيقة في موضوع مهمّ

-أنا؟ وأي موضوع مهمّ قد يجمعنا معا..
-أرجوك لا تتظاهري بعدم الفهم.. واضح جدّا أنك ذكية ، وهذا مما أحبه جدا في أي امرأة..
-حقّا؟ لم أكن أعلم ذلك..
-هيّا.. اختصري علي العذاب والكلام الكثير وأخبريني برأيك
-رأيي في ماذا؟
-في شخصي.. في علاقة محتملة..
-علاقة؟ ! لا أراك سوى قد قصدت الباب الخاطئ لطرقه يا صديقي.. لست هنا لإقامة علاقات.. أنا هنا للدراسة وكفى..
تشعب الحوار بيننا وأنا أناور وأناور، وأمنحه معسول الكلام حينا، وقاسيَهُ أحيانا أخرى، وهو يحاول ما أمكن أن يخرج بنتيجة واضحة.. مرّت أسابيع طويلة قبل أن يعرف أن النتيجة الحتمية الوحيدة هي أنه لن يخرج منّي بشيء.. على الأقلّ لن يحوّلني إلى مجرّد اسم في قائمة أرقام هاتفه..
لقد أغلقت أمامه الأبواب كلها لكنني تركت بابا واحدا لا أدري إن كان سيراه..
في أحد الأصباح جاءني بوجه مستبشر ففهمت أنه قد اقترب من الباب الذي تركته مُواربا عن قصد.. لم يرتبك هذه المرة ولم يتردد وسألني مباشرة:
-هل تقبلين الزواج مني؟
احمرّ وجهي خجلا هذه المرّة.. لم أدر ماذا أقول رغم أنني كنت أعرف أن هذه اللحظة ستأتي..
ردّي عليه كان على شكل سؤال مباشر أيضا رغم كلّ الارتباك الذي أحسست به:
-متى ستأتي لخطبتي؟
كاد أسعد يطير من السعادة.. مرّت أيام قبل أن يتصل بي ويخبرني أنه سيزور بيتنا الجمعة القادمة..
قبل يوم من زيارته هو وأسرته كنا نتبادل الحديث أنا وإحدى صديقاتي فتطرقنا لموضوع خطبتي..
نظرت لي صديقتي في ذهول غير مصدّقة..
-أسعد وأنت؟
-نعم.. ماذا في ذلك؟
ظلت صامتة لفترة طويلة وكأنها متردّدة في اتخاذ قرار ما قبل أن تقوم بالنقر على أزرار هاتفها المحمول ثم تناولني إياه مشيحة بوجهها إلى الجانب الآخر في إشارة إليّ كي أطلع على ما هنالك..
كانت مجموعة من رسائل الغزل التي أرسلها لها!
لم يفاجئني ذلك كثيرا لكنه أغاظني، ولعلّه حرمني من جزءٍ لا بأس به من مُتعتي في تأديب أمثاله..
في الغد كان أسعد وأسرته ببيتنا... في غرفتي أستمع لأحاديثهم.. أسعد يجلس مطأطأ الرأس بينهم وهو ينتظر لحظة ظهوري ولحظة قراءة الفاتحة مع والدتي..
تنادي عليّ الحاجة، بعدما بدا أنهم اتفقوا على كل شيء..
-هيا يا ابنتي.. اجلسي..
تقول الحاجة هذا، وهي تهمّ بقراءة الفاتحة مع والديْ أسعد.. لكنني أستوقفهم للحظة..
-مهلا.. ماذا ستفعلون؟
-سنقرأ الفاتحة طبعا يا ابنتي..
-قبل أن تسألوني عن رأيي؟
-ألستما متفقان أنت وأسعد؟

-هل كانوا الآن بصدد خطبتي؟
-نعم، طبعا..
-اعتقدت أنها مجرد زيارة تعارف أما إن كان هذا هو الحال فأنا أرفض الزواج..
هوت العبارة كالصاعقة على الجميع.. بينما علت شفتيّ ابتسامة متشفيّة..
أحقا يعتقد الرجال أنهم الوحيدون القادرون على الخيانة والتلاعب بمشاعر الأخريات؟
انتشر الخبر كالنار في الهشيم. هنأتني الكثيرات على ما فعلته بأسعد. حتى بعض أصدقائه من الطلبة الرجال كانوا يشيرون لي بأصابعهم من حين لآخر دلالة على التشجيع.

الوحيد الذي اعتزلني بعد هذا كان عبدو. لم يرقه إطلاقا ما فعلته وكان يرى أنني أكبر من أن أدخل في لعبة مقيتة تافهة كهذه. آلمني هذا وقتها جدا. مضت مدة طويلة قبل أن تعود المياه إلى مجاريها بيني وبينه.

من يومها أصبحت علاقة بعبدو خاصة ومميزة جدا. لا أحد اعترف بحبه للآخر، لكن لا أحد أيضا قطع تواصله مع الآخر. كنّا ولا زلنا نحوم حول الحمي دون أن نواقعه.

في ذهني تتداعى الذكريات. ذكريات الكلية رفقة عبدو. نكاته، غيرته المستترة. خيباته وانكساراته. كان بي بعضُ جنون في السنة الأولى قبل أن يتحول إلى تعقّل كامل بمجرد حصولي على الإجازة واكتشاف الحقيقة المرة: انتهى زمن اللهو وبدأ زمن البحث عن شغل !

وهناك أدركت أن الحياة أقسى مما أتصور. بدأت أشعر حقا بأي فراغ تركه المرحوم عندما رحل دون سابق إنذار.

أجلس في ملهى "لاريبوبليكا"، ببلدة سالو، متصفحة الوجوه، متظاهرة باللامبالاة. يحاول بعض الشباب التودد إلي فأخبرهم أنني بانتظار صديق لي، فينسحبون دون كثير إلحاح.

يعلنون في مكبر الصوت أن فقرة تعرٍّ ستبدأ، ثم تتوالى عروض مجموعة من الفتيات.

تتزايد دقات قلبي إذ أرى سناء أخيرا وهي تقدم عرضها. إذن هي لم تطرد ولم تغير المكان. طرف الخيط لا زال هنا حيّا يرزق.

لم أقم بأية خطوة. لن أقع في خطأ التسرع الذي قد يكون ورّط عبدو بشكل ما. فقط راقبت وتأكدت أن سناء لا زالت هناك ثم انسحبت. لا بد لي من خارطة طريق معقولة وغير خطيرة في رحلة البحث هذه وإلا فإن الثمن قد يكون باهظا.

في رحلة عودتي كانت تساؤلات كثيرة تطرق ذهني بإلحاح:

كيف يسمح لفتاة قاصر بأن تقدم عروضا في ملهى ليلي؟ كيف تحايل أصحابه على القانون الإسباني الصارم في هذا الباب؟ إن كانوا قد تمكنوا من ذلك فما الذي يمنعهم من ارتكاب خروقات وربما جرائم أخرى؟

لكن كيف كشفت سناء أمر عبدو؟ أم تراه صرّح لها بحقيقة ما يريده في لقائهما الثاني؟

تتصاعد الأسئلة كفقاعات صابون فوق رأسي ثم ما تلبث تاركة خلفها رذاذا يذهب جُفاءً.. لا إجابات لحدّ الآن.

ليل برشلونة البهيم يعلن سطوته على سمائها المزّينة بنجوم سمح لها الجوّ الصافي بلحظات وداعٍ قبل موسم "الكريسماس". أضواء الطائرات بمطار "إيل براط" تبدو لي من شرفة منزل أخت بشرى وهي تنزل ثم تحلّق.

ستظل المطارات بالنسبة لي أمكنة ساحرة. كيف لا وهي التي تسمح لك بالرحيل بعيداً.. بعيداً.. قاطعاً مئات الآلاف من الكيلومترات، لتستقر أخيرا، خلال ساعات قليلة، في موطنٍ جديد.

في الشرفة أسفل مني أسمع عجوزا تغني لحفيدتها بصوت مرتعش، لكنه جميل ذو شجن:

تفاحة بيرو الصغيرة..
كم تبلغ من العمر؟

هل حقا لا تعرفين؟
سنة.. سنتان.. ثلاث سنوات؟

تتداعي الذكريات مرة أخرى وأنا أفكر أنني قبل شهور كنت في طنجة لا أملك قطميرا. كيف كنت أعتقد أن حياتي ستبقى سائرة على نفس الوتيرة.

لعل المشكلة أنني كنت فعلا أقوم بنفس الفعل منتظرة نتائج مختلفة. البحث عن عمل بالطريقة التقليدية، والانتظار.. والكثير من النحيب.

كم كان صادقا عبدو في فهمه للحياة. عندما بدأت العمل بمعبر سبتة، بدا كأنني حركت دولاباً صدئاً كان معطلا منذ سنين، فحرّك معه عشرات التروس ودارت دورة الحياة لتصبح بعد ذلك، بسيّئها وحسنها، مثيرة وتستحق أن تُعاش.

في الصباح، نأخذ أيمن إلى فضاء الألعاب المجاور للمنزل كي يرتع ويلعب. يلاعب بعضا من أقرانه دون مبالاة باختلاف اللغة والثقافة والنشأة. يلاعب الكلابَ التي يعشق الإسبان تربيتها.

أقول لبشرى:

- تعتقدين أن أيمن سيكون بخير لو أكمل حياته هنا؟

- ليت إجابة السؤال بسيطة..

- أعلم ذلك.. أحاول أن أفكر بصوت مرتفع فقط..

أعود لأسألها وقد سمحنا لأنفسنا أنا وهي بمزاحمة الأطفال على أرجوحتين:

- هل يمكن أن تكون مخاوفي وهما ويكون عبدو في عزلة اختيارية قد يظهر بعدها وكأن شيئا لم يكن.

- كان هذا رأيي قبل أن نسمع ما سمعناه من صديقه حسن، وما رويته أنت عن آخر رسائله. لم تكن هناك أي إرهاصات توحي بأخذه هذا القرار..

- صحيح..

- بالمناسبة.. وافقت أختي على رعاية أيمن هذه الليلة، لأن يوم غد أجازة. سأرافقك إلى الملهى..

- ستكونين عبئا إضافيا. دعيني أنهي هذه المسألة وحدي.

- عبدو حاول ذلك فما ترك لنا سوى طيفه. لا أريد أن أفقدك مثلما فقدتِه. إن كنت لا زلت متماسكة لأنك غير متأكدة من مصيره. فأنا سأجن ولا شك لو انقطعت أخبارك بنفس الطريقة.

ننهي حديثنا ونحن نتابع ببصريْنا أيمن وقد غرق في نقاشٍ طفولي مع رفيقة جديدة له.

ملهى "لا ريبوبليكا" من جديد.

بنظرة ارتياب ينظر حارس الأمن الخاص إلى بشرى، قبل أن يسمح لنا بالدخول مومئا لي برأسه وكأنه تذكر زيارتي يوم أمس.

- هذه هي سناء.

أقولها لبشرى ونحن نراقب العرض الذي تقدمه سناء بكثير من التظاهر وقليل من الإتقان. بشرى تتقن الإسبانية بشكل أفضل مني، لذا كان عليها أن تكون المبادرة بالكلام:

- كان عرضا رائعا.. برافو !

تلتفت لنا سناء بعد أن اقتربنا منها في مجلسها. تطوح بشعرها إلى الخلف ثم تلفه بسرعة كبيرة على شكل كبّة ضخمة وكأنها قد اكتفتْ منه إثر انتهاء عرضها، قبل أن تجيب ببرود:

- شكرا..

لحسن الحظ أنها لا تتذكر لقاءنا القصير ذاك بمكتب الشغل.

- أنت مغربية أليس كذلك؟

- أنا هنا اسمي "سينو".. هل هناك خدمة يمكن أن أقدمها لكما؟

- نحن هنا ننوب عن مجموعة أصدقاء كلفونا بمهمة العثور على فتاة مثلك لتنشيط حفلة جماعية "بارتي"..

- عذرا. أخطأتما الوجهة. لا يسمح لي بالاشتغال خارج الملهى.

- سندفع لك ما تشائين

- جوابي كان واضحا.. أعذراني..

تنسحب سناء، أو "سينو" كما أطلقت على نفسها، وتتركنا في حيرتنا أنا وبشرى. لم تنجح فكرة استدراجها لمكان هادئ يسمح بالسؤال والاستفسار.

نغادر الملهى وقد انتصف الليل. آخر قطار غادر محطة "سالو" في الحادثة عشرة والنصف. نتخذ لنا أنا وبشرى غرفة بأحد الفنادق الصغيرة بالبلدة مرغمتين.

رائحة نبات "مسك الليل" القادمة عبر النافذة من حديقة الفندق الصغيرة تذكرني بطنجة. تقترب بشرى مني وتضع يدها على كتفي ثم تهمهم:

- لا تقلقي.. سيكون الجميع بخير.

أبتسمُ لها وأربت على كفها دلالة على أن رسالتها القصيرة قد وصلت. نسمع معاً صوتا يأتي من جهة الباب.

- يبدو أنها خدمة الغرف.. لا عليك.. سأرى ماذا يريدون.

تفتح بشرى الباب فتجد الفراغ أمامها.

- أنا متأكدة أن أحدا كان يطرق الباب أو يحاول فتح مزلاجها.

- أنا أيضا. لعل أحدهم اعتقدها غرفته بالخطأ.

تعود بشرى إلى مكانها بقربي لنتأمل الشارع الفارغ ذا الإضاءة الناعسة. نرى من مكاننا شخصا يحثّ الخطى، قبل أن يتوقف ويرفع وجهه نحونا بشكل مفاجئ.

رغم الإضاءة الخافتة استطعت التعرف عليه بسهولة. إنه حارس الأمن الخاص بالملهى. إذن هو من كان يداعب الباب محاولا اقتحامها؟

نتراجع أنا وبشرى في هلع ونقفل النافذة. تسرع بشرى إلى الباب وتحكم إقفاله ثم تقرّب منضدة وتضعها خلفه.

- لقد شكوا في أمرنا يا ليلى. إنهم يطاردوننا، وربما يرغبون في إيذائنا أيضا.

- لو كانوا أرادوا لفعلوا.. إنهم يرهبوننا فقط. وهذا يعني أننا في الطريق الصحيح. نفس الطريق الذي مر منه عبدو وكان سببا في اختفائه.

- تقصدين أنه الطريق الخطأ. فلنرحل بسرعة يا ليلى وننسى كل هذا العبث. إننا نلعب بالنار فعلا.

- وأترك عبدو دون أن أعرف مصيره. أترضين لي ذلك؟

- نعم أرضاه لك. الأمر أكبر منك يا ليلى. أبلغي الشرطة واتركي لها إكمال ما بدأته..

- الشرطة تحتاج كلاما معقولا مبنيا على دلائل وليس مجرد تكهنات. لكن.. لقد ذكرتني فعلا بأمر مهم..

أبحث في دليل هاتفي عن رقم "بابلو". الشرطي الذي كان سببا في حصولي على الجنسية الإسبانية.

أواصل كلامي شارحة لبشرى:

- لا أدري كيف لم يخطر الموضوع على بالي من قبل. سأطلب من "بابلو" أن يبحث عن اسم عبدو في قاعدة بيانات الأمن الإسباني. لعله يجد لنا شيئا.. من يدري؟

نتأكد أنا وبشرى مرات ومرات من إحكام إقفال الباب والنافذة قبل أن نعود إلى سريرنا بعيون جاحظة، خائفة، نعلم تماما أنها لن تذوق طعم النوم هذه الليلة.

نتناول أنا وبشرى إفطارنا بأحد المقاهي المطلة على البحر. القلق يعتمرني وعيوني تجول في كل مكان بحثاً عمّن يلاحقنا أو يراقبنا.

الجوّ هادئ جدّا وأناس البلدة ودودون عموما. لولا ما أمرّ به لبقيت هنا أياما أخرى لاستعادة نشاطي والتقاط أنفاسي من تعبِ سنين مضتْ.

يقول لنا النادل أن البلدة تكون أفضل بكثير صيفاً. حفلات وأنشطة ومهرجانات لا تنتهي. هو لا يعلم أن ما يتحدث عنه يمثل كابوسا بالنسبة لي. أنا الهاربة من الضجيج والزحام.. الباحثة عن هدوءٍ يعيد لي السكينة.

تصلني رسالة من بابلو فألتقط هاتفي وتقرّب بشرى رأسها من كتفي آملة مثلي أن يأتينا الجواب الشافي:

"الشخص الذي تبحثين عنه موجود في سجن مدينة "سالو" الصغير.. هل هو من أفراد عائلتك؟"

لا أدري إن كان عليّ أن أفرح أم أحزن؟ أفرح لأن عبدو على الأقل على قيد الحياة، أم أحزن لأنه في غيابات السجن لسبب لا أعلمه؟

بشرى تضع كفها على فمها محاولة ابتلاع الصدمة. بينما بالكف الأخرى تضغط على كتفي برفق.

- ما العمل الآن؟

- زيارة عبدو طبعا..

- الآن؟

- خير البر عاجله.

نستقل سيارة أجرة متوجهين نحو السجن الذي بدا لي ضخما عندما اقتربنا منه، على عكس وصفِ بابلو.

في البوابة استوقفنا الحارس سائلا عن سبب قدومنا.

- نريد زيارة أحد الأشخاص.

- الزيارة ممنوعة.

تتدخل بشرى بإسبانيتها المتقنة وتشرح له أننا جئنا من المغرب وأن الوقت ليس ملكاً لنا. لا تترك له فرصة للمناورة وهي تترجاه بكلماتٍ متتالية مرفوقة بدموعٍ لا أدري كيف اصطنعتها !

يتململ الحارس في جلسته معلنا بداية استسلامه أو نهاية الجدال. يحادث شخصا ما عبر جهاز الاتصال ثم يعود ليسأل:

- هل تقربانه؟

- نعم.. أنا خطيبته، وهذه صديقتي.

- حسنا.. سنسمح لك بالدخول أنت فقط. يمكن لصديقتك الانتظار هنا.

- لا مشكلة طبعا.. شكرا جزيلا..

في قاعة صغيرة أجلس منتظرة قدوم عبدو الذي لم ألتقه منذ ما يزيد عن سنة. أشبّك كفيّ ببعضهما ملتمسة بعض التماسك.

أخيرا، أسمع صوت الباب وهو يفتح. أستدير فأجد عبدو وهو يفرك معصميه بعد أن فكّت عنه الأصفاد.

لا زال يحتفظ بنفس النظرة رغم الإنهاك البادي على وجهه وجسده. لحظات صمت عمّت الغرفة الصغيرة قبل أن أنطلق كطفلة وأحتضنه.

لم يعد هناك أي داع للتحفظ. يكفيني جدا الآن أنه بخير وأنا مستعدة لألقي على مسامعه آلاف قصائد "التبراع". ذاك الغزل الذي تلقيه نساء الصحراء، باللهجة الحسانية، على مسامع الرجال.

- لا أصدق ليلى أنك هنا ! كيف فعلتها بالله عليك؟

- لا تقلّل من شأني. "الدّيبة" تستطيع فعل الكثير.

وكأنه كان فقط ينتظر إشارة أو جملة كهذه. انفجر عبدو ضاحكا. قهقه كثيرا حتى سال الدمع من عينيه. منحتُه مساحة ووقتٍ كافية ليقتل حزنه بذلك.

أخيرا توقف والتقط أنفاسه وعاد ليخاطبني من جديد:

- حسنا أيتها "الديبة".. كلّي آذان صاغية..

رويت له ما حدث باختصار وعيناي على عقارب الساعة التي كانت تسابقني. بعد أن انتهيت سألته:

- وأنت.. ما حكاية حبسك هنا؟

- لقد تم توريطي بخبث كبير بتهمة امتلاك 100 غرام من الهيروين. طلبت مني سناء أن نلتقي بأحد الفنادق هنا. وفعلا التقينا أكثر من مرة وحكت لي الكثير عن طريقة تهريب القاصرات إلى هنا عن طريق إيهامهن بتصوير مجموعة من الأفلام. بعد ذلك، تصبح الفتاة المهرّبة مجرد "شيء" في ملكية عصابة التهريب التي تفعل بها ما تشاء.. طبعا أي اعتراض أو محاولة هرب تكون عقوبتها وخيمة جدا.

- وكانت تمنحك هذه المعلومات ببساطة؟

- طبعا لا. كنت أنقُدُها في كل جلسة مئة يورو، إضافة إلى أنني أخبرتها أنني روائي وأريد أن أطلع على هذه الأجواء لا أكثر. لكن بشكل ما، وصل الخبر إلى العصابة لأفاجأ في إحدى جلساتنا بمداهمة الشرطة لنا وبعثورها في جيب معطفي على 100 غرام من الهيروين. لم أحتجْ سوى إلى نظرة في عيون سناء لأدرك أنها من دسّتها هناك.

- لكن سناء لا زالت تشتغل بالملهى الليلي.

- في الغالب، كان الثمن الذي أدّته جراء حديثها معي هو توريطي، فتمّ العفو عنها نظير تلك الخدمة الجليلة..

- وما مصير تلك المحادثات؟

- لحسن حظي أنني سجلتها على هاتفي دون أن تشعر سناء. لكن لسوء حظي، بالمقابل، أن الهاتف الآن في ملكية الشرطة التي لا زالت تحتجزه منذ توقيفي..

- وهل يحقّ لهم ذلك؟

- هذا ما قاله المحامي. حاجياتي سآخذها في حالة حصولي على البراءة..

- آه نسيت أن أسألك. لا زالت محاكمتك لم تجر بعد؟

- لا. لقد عينوا لي محاميا كسولا جدا ومتماطلا. للفساد أيديه الطولى التي لا تترك مكانا. وبالتأكيد بعض رجال الأمن متواطئون مع العصابة ويودون الاحتفاظ بي هنا أطول مدة قبل صدور الحكم. هي "قرصة أذن" قوية لكل من يفكر في الاقتراب منهم.

- لا عليك. سأعين لك محاميا خاصا. وسنبدأ اللعبة بمقاييس مختلفة.

- ومن أين لك بتكلفة محام خاص يا ليلى وأنت...

قاطعت كلامه وأنا أروي له قصة الجنسية الإسبانية وقصة لوحة "عويشة الموريسكية"، فبدت الدهشة والمفاجأة واضحة على وجهه وهو يعلق:

- يا له من تحوّل دراماتيكي في حياتك. والله لو كان هذا فيلما لاتهمه الناس بكونه مفرطا في الخيال، بعيدا عن الواقع..

- آه كم يحفل الواقع بما هو أغرب. لكن أكثر الناس لا يعلمون.

أعلن الأمني الذي يحرسنا نهاية الزيارة فتوادعنا.

انتهت الزيارة وعدت إلى بشرى منكسة الرأس ساهمة، أفكر في الخطوة القادمة.

يهرش المحامي "ألفونصو" رأسه بقلم الحبر وينظر لنا أنا وبشرى بغير قليل من الحماس.

- تقولان أنه لم يلمس كيس الهيروين؟

- لم يفعل أبدا. أكدّ لي ذلك.

- تبدو قضية بسيطة ما لم تكن هناك تفاصيل أخرى يختفي الشيطان فيها.

- الجزئية الأخرى الذي قد تكون مهمة أن عنصري الشرطة اللذين أوقفا عبدو أنكرا أن شخصا آخر كان معه بينما يؤكد هو أن سناء كانت برفقته.

- هذه يمكن حلها بالاستعانة بإحدى كاميرات المراقبة في الحيّ..

- الأمر بين يديك.

يصمت "ألفونصو" مطوّلا معلنا نهاية اللقاء بأدب فننسحب أنا وبشرى آملتين في سماع أخبار جيدة في قادم الأيام أو الأسابيع. أحرص على التلفت حولي كثيرا ومراقبة المحيطين بنا. أتمنى أن تتغافل العصابة عنّا، خصوصا أن خبر زيارتي قد يكون وصلهم من طرف جواسيسهم بالسجن.. إن وجدوا.

تتردد في ذهني أغنية الجدة البيروفية بإلحاح غريب:

تفاحة بيرو الصغيرة..
كم تبلغ من العمر؟
هل حقا لا تعرفين؟
سنة.. سنتان.. ثلاث سنوات؟

تقترح عليّ أن نزور أحد المطاعم المغربية لنتذكّر الوطن.. لنتذكّر طنجة.

طلبنا معا أكلة "البيصار" الشعبية. لا يمكن أن تقاوم الحنين إلا بهذه التفاصيل.

تمرّ الأيام بطيئة ثقيلة ونحن نفقد لذة الاكتشاف أمام كمية القلق المتزايدة كل يوم. أخيرا يرنّ هاتفي حاملا معه أخبارا من المحامي..

- هل من جديد سيد ألفونصو؟

- نعم. أخيرا أخذت موعداً من السجن وسأزور عبدو غدا.

- أرجوك أخبرني بأي مستجد بمجرد انتهاء لقائك معه..

- لا تقلقي. سأفعل

يقولون إن غدا لناظره قريب، والحقّ أنه بعيد بعيد. كيف ستمضي الساعات القادمة يا ترى؟

الشرفة ملاذنا أنا وبشرى في الأيام الأخيرة. نعدّ كأس شاي منعنع ونسهر هناك وموضوع حديثنا الذي لا يتغير هو واقعة الهيروين.

- لا زلت عند رأيي وهو أنه كان علينا أن نبلغ الشرطة من اليوم الأول.

- لا يمكن ذلك يا بشرى. نحن لا نعلم ما الذي يمكن أن تكون ردة فعل العصابة ولا الشرطة نفسها. قد نجد أنفسنا أمام ورطة قانونية ونلتحق بعبدو في السجن بدل أن يغادره هو.

- عموما، زيارة المحامي كانت موفّقة وسنرى ما سيأتي به.. بالمناسبة، هل تحدثتما أنت وعبدو في شيء آخر غير السجن والعذاب؟

- تسخرين أيتها الخبيثة؟ لا لم نفعل. لكنني تجرّأت واحتضنته بمجرد رؤيته..

- يا سلام عليك. وهو؟

- بادلني حضنا بحضن طبعا.

- حضن حبّ أم حضن أخوة؟

- من السابق لأوانه تحديد ذلك. لا زلت أجد صعوبة في توصيف مشاعري نحوه. أخشى أن يكون هذا الحبّ، إن وجد، مغلّفا برغبتي، كفتاة يتيمية، في وجود أب أو أخ بجانبي. ولعلّي وجدت كل ذلك فيه.

- قد يكون وقد لا يكون..

- فليخرجْ بسلام الآن ولكل حادثٍ حديث..

رقم ألفونصو يتألق في الشاشة بصمت فأجيب بكل ما استطعت من سرعة..

- هه.. ماذا هناك سيد ألفونصو؟

- والله لا أدري كيف أخبرك بذلك؟

- أرجوك لا تفعلها بي وأطلق رصاصة الرحمة بأقصى ما تملك من سرعة..

- عبدو.. وجدوه ميّتا هذا الصباح في زنزانته !!

أصابتني الصدمة بذهول كامل عن العالم. يبدو لي الناس كأطياف تمشي في كابوس. الأصوات تأتي عميقة جدا غير واضحة.

بشرى التي كتب عليها فجأة أن تؤدي أصعب الأدوار في حياتي، تواصل مهمتها بأناة وصبر.

تخبر أهل عبدو. تنهي الإجراءات مع المحامي: إجراءات التشريح لدى الطبيب الشرعي، إجراءات تسلم الجثة وما بقي من حاجيات عبدو، وأخيرا إجراءات ترحيلها لتدفن في طنجة.. المدينة التي عشقها عبدو وعشقته والتي عاد إليها جثة هامدة.

يجثم على صدري حزن قاتل. ينتقل إلى أيمن الذي صار صامتاً وقليل الحركة. يخيفني ذلك بشدة فأحاول بما بقي لي من إرادة أن أفتعل نشاطا لا طاقة لي به.

تفهم بشرى ما يحدث فتشاركني المحاولة. تتحسّن ردود فعل أيمن تدريجيا قبل أن يعود إلى طبيعته التي كاد حزني يسلبها منه.

وكأن الزمن يعيد نفسه أجد نفسي أمام حاجيات عبدو كما وجدت نفسي أمام حاجيات الحاجة يوماً.

هاتفه هناك يقبع ساكنا محتفظا بالكثير مما قاله أو كتبه عبدو، وبالكثير مما كان ينوي أن يكتبه يوما !

أصله بالشاحن فأسمع نحنحة من خلفي. بشرى تنظر لي بعتاب مفاده "لا يحق لك ذلك".

- روح عبدو لن تذهب سدى يا بشرى. وهذه القطعة الجامدة ستقتصّ له ممّن كانوا سببا في موته بشكل أو بآخر.

تصمت على مضض. الكائن الجامد يمتلأ حياةً من جديد. أفتحه فأجد أمامي آخر جملة أتمنّاها الآن: أدخل كلمة المرور !

حصّن عبدو هاتفه بكلمة للسرّ تاركا وراءه أسراراً لا يبدو أنها ستتكشف يوما.

أخبر بشرى وأنا أسقط الهاتف من يدي في غضب وحزن مضاعف. رُحماك ربّي !

تحمل بشرى الهاتف بكل هدوء وتداعب أزراره ببساطة ثم تسلّمني إياه وقد أصبح مُشرّع الأبواب، فأرفع عينيّ الذاهلتين إليها.

- كيف فعلتها؟

- جربت أول كلمة مرور خطرت على بالي.

- وهي؟

- ليلى !!

ارتميت في حضن بشرى ولا أدري كم بقيت كذلك ولا كمية الدموع التي سالت من عيني. عندما استيقظت من حالة اللاوعي التي انتابتني، أمسكت الهاتف محاولة التماسك وأنا أتصفحه.

طبعا كان أرشيف رسائله قد مسح تماما. من الواضح أن العصابة أرسلت رسائل وهمية لمن اعتقدت أنهم سيقلقون عليه، مثل حسن والسيد هشام، ثم قامت بالتخلص من كل شيء.

لحسن الحظ لم أكن في لائحة رسائله الموجودة ببرنامج التراسل الفوري. لا أظنهم اخترقوا البريد الإلكتروني أيضا.

أبحث في أرشيف الملفات لأجدني أمام ملف صوتيات فأبدأ بتشغيلها لأجد أحدها يحوي حواره مع سناء.

لقد غفلوا عنه في غمرة سرعتهم إذن؟ هذا بالضبط ما كنت أبحث عنه.

أبدأ في الإنصات فينتابني شوق متجدد إلى عبدو وصوته الرخيم إذْ أسمعه يسأل سناء فتجيبه.

كانت الحوارات طويلة وتنضحُ بأسرار خطيرة فعلا، تستحق أن تخرج للوجود. لكن كيف إلى ذلك من سبيل؟

أخبرت بشرى أنني سأقوم بتفريغ الحوار كتابةً على أن أعهد لها بمهمة ترجمته إلى الإسبانية لاحقا.

أراسل السيد هشام فيخبرني أنهم تلقوا من عبدو رسالة قصيرة عبارة عن استقالة، وبعدها انقطع الاتصال معه تماما.

أحاول أن أشرح له في رسالة مختصرة كل ما حدث. سائلة إياه سؤالا لم يتوقعه:

- هل يمكنني أن أنوب عن عبدو؟

- ماذا تقصدين؟

- هل عينتم شخصا مكانه؟

- بصراحة لا. ليس بعد؟

- ماذا لو تقدمت أنا لشغل الوظيفة؟ لدي جنسية إسبانية، مما سيسهل عليكم الكثير من الإجراءات القانونية.

- هل يمكنك أن ترسلي لي سيرتك الذاتية؟

- نعم.. هنا والآن.

تمضي أيام قبل أن تصلني الموافقة. لم تر الجريدة أي مانع من أن أواصل مهمّة عبدو. وبالنسبة لي، كانت أول مهمة هي مواصلة تحقيق تهريب القاصرات.

لن تذهب تضحية عبدو هباءً.

أعود إلى إسبانيا تاركة لبشرى مهمة رعاية أيمن. متجاهلة تماما تحذيراتها، مطمئنة إلى أن أيمن سيكون في يد أمينة ما دام معها.

في آخر المطاف، لا بد من أين يضحي شخص ما في مكان ما وسط معمعة كهذه.

أعود وقد أنهيت مهمة تفريغ حوار عبدو، طالبة من السيد هشام مراجعته.

- التقرير جيد آنسة ليلى. لكن لا يمكن نشره بهذا الشكل. مصدر واحد غير كافٍ.

- الموضوع حساس ويصعب إيجاد أي مصادر أخرى.. نحن لا نكشف هنا سوى ما قالته سناء. والتسجيلات لدينا. ما سيثيره الموضوع من جلبة سيكون كافيا للتغطية على أي أصابع اتهام توجه لنا.

- سأعيد عرض الموضوع على رئيس التحرير بمنطقك هذا. ولنرَ لعلّه يجرؤ على الارتماء في هذا البحر اللّجي.

كنت أحتاج فقط لنشر الموضوع، وأعرف أنه سيثير ضجّة كافية على الأقل لبداية التحقيق، وذلك ما كنت أريده.

فجأة، تذكرت أنني كنت طرفا في الموضوع بشكل أو بآخر عندما حاولوا تشغيلي، وربما تهريبي أيضا. فلم لا أنضاف كشاهدة أيضا؟

قدمت اقتراحي للسيد هشام ليدعم به الطلب وجلست أنتظر.

وحيدةً أتجول في شوارع برشلونة التي تألف وتؤلف.

تبدو برشلونة أكثر روعة من قمة "مونجويك". ذكّرتني الخضرة والطبيعة بهكتارات احترقت في طنجة. في الحديقة المجاورة للمنزل حيث اكتريت يلتقي الكثير من الجيران، بينهم أفارقة ولاتينيون وإسبان أيضا.
الحذر هو السمة الغالبة في بادئ الأمر، لكنها تتحول تدريجيا إلى تعارف يكون سببه الأطفال.
تقذف تلك الشابة الإسبانية الجميلة كرة التنس لكلبها متظاهرة باللامبالاة بوجودي. قبل أن يقترب كلبها مني وأبدأ بملاعبته. تسألني من بعيد:

- تحبين الكلاب؟

- لنقل أنني على الأقل لا أخافها. ما اسمه؟

- تقصدين ما اسمها.. إنها "كارلا".. هي لطيفة جدا مع الغرباء لدرجة أنني أخشى أن يخطفها أحد يوماً دون أن تحتجّ بالنباح.

نتجاذب المزيد من أطراف الحديث فتنهار الحواجز تدريجيا.

- لماذا يقولون أن "المورو" سيئين؟ لحد الآن أغلب من التقيتهم لطفاء المعشر جدا.. وأنت منهم ومنهنّ.

- الإعلام يلعب لعبته صديقتي "لاورا".. تعرفين أن المغاربة الذين يعيشون هنا بمئات الآلاف. لو كانوا بهذا السوء لكانت إسبانيا في خبر كان. كل ما هنالك أن بعضهم، فعلا، يصلون إسبانيا بطريقة غير شرعية فيكون أمامهم الكثير من السوء ليرتكبوه قبل أن يصبحوا مواطنين صالحين.

- صدقت.. نحن أحيانا لا نختار مصائرنا بالضرورة. قد تفرض علينا الظروف ما لم نتصوره.

نفترق أنا و"لاورا" على أمل لقاء قريب قادم وقد تبادلنا أرقام الهواتف.

يضع بعض الحمقى حواجز وهمية فنستجيب لهم لنكتشف أننا في الأخير فرصة معرفة الآخر والعالم. وكأننا ما جعلنا شعوبا وقبائل لنتعارف بل لنتناحر.

موسيقى الهاتف تنبعث كاسرة الصمت الذي عمّ المكان. اسم "ألفونصو" يطل من هناك منذرا أو مبشرا بجديد ما:

- هل من جديد سيد ألفونصو؟

- نعم.. أمر مهم جدا قد يكون في صالحنا. التقرير الأولي يقول أن عبدو مات مسموما. تم إطعامه بنوع نادر من الباذنجان المسموم الذي يصعب تمييزه عن الباذنجان العادي. تقرير الطبيب الشرعي الرسمي سيصدر غدا بناء على ما أخبرتك به. سننتظر حتى نتأكد تماما ثم نبدأ جولة أخرى.

- أرجوك افعل ما بوسعك وأعدك بجزيل العطاء..

- إن ثبت ما قلته لك فلن تحتاجي لدفع سنت واحد. سيكون على الدولة الإسبانية أن تدفع لعائلته تعويضا. فحراس السجن هم من يتحملون مسؤولية موته. أجري سيكون نسبة من ذلك التعويض لا أكثر.

أتصل بالسيد هشام وأخبره بالجديد راجية أن يتم تأجيل البث في طلبي مرة أخرى. أريد أن أضيف قصة سجن عبدو كاملة إلى غاية قتله.

من حين لآخر أطالع أخبار باب سبتة فأجد أن الأمور صارت أفضل. تم تنظيم العبور وتم فرض استعمال نقالة بعجلات على كل مشتغل بالمعبر. لم يعد حمل الأثقال على الظهور مسموحا به.

"الديبات" أصبح المصطلح الشائع بدل "البغلات" الذي صار نسيا منسياً. للحظة تصورت أنني سأقضي ما تبقى من حياتي هناك في غياب أي بوادر أمل حينها. لكن الحياة قد تتغير بتفاصيل صغيرة.. حركة هنا.. حركة هناك.. رفرفة جناح فراشة قد يفعل الأعاجيب كما تقول النظرية.

أخيرا، يصل الرد من السيد هشام الذي يعلن أن الفرج قد جاء أخيرا:

- وافق رئيس التحرير. يمكنك الاشتغال على التقرير بالمعطيات الجديدة التي لديك.

أنغمس تماما في إنجاز التقرير النهائي. أعطي لكل جزءٍ حقه: اللغة، الأحداث، الحوارات. إن كان عبدو مدينا لي بشيء فهو أن أمنحه وهو في تربته تقريرا يليق بما ضحى من أجله.

ساعدني التقرير كثيرا في البحث أكثر عن بعض دروس الصحافة، التي كنت أستفيد منها بالموازاة مع إنجازه. وجدت نفسي أرسل أخبارا وقصاصات من حين لآخر للجريدة مؤدية بذلك دوري على أكمل وجه.

أحيانا كثيرة، يمزقني الشوق إلى المشاغب أيمن.. إلى بشرى.. إلى حي كاساباراطا بضجيجه وعربدات بعض أهاليه. البعد يجعل الأشياء أجمل ولا شك.

أدغدغ الذكريات بأغانٍ مختلفة. أبتعد عن الحزينة منها لأنها ستدمّر مقاومتي لهذه الغربة غير المتوقعة.

طرقات على الباب توقف سيل الذكريات والحنين..

- من على الباب؟

- إنها أنا.. "لاورا" صديقتك يا ليلى.

أفتح الباب مرحبة. فتدخل لاورا مرفوقة بصديقتها "كارلا".

- إياك أن تنبحي. لا نريد أن نفسد على ليلى إقامتها الهادئة.

أشير بيدي إلى لاورا ألا تهتمّ كثيرا. يحب الإسبان عموما أن تعامل كلابهم كواحد من أبنائهم. أي معاملة قاسية أو عابثة ستقابل بالغضب والقطيعة. لذا أرحب بكارلا كما أرحب بلاورا.

تعتلي كارلا مقعدا وثيرا وتبسط ذراعيها في صمت وهي تنظر إلينا كصديقة ثالثة تشاركنا الحديث بصمت.

تؤنس "لاورا" وحدتي بشدة. تقول لي أنها انفصلت مؤخرا عن حبيبها قبل أيام فقط من إعلان زواجهما.

- لم يكن قادرا على تحمل المسؤولية وكان يريدها علاقة مفتوحة بدون أي مستقبل أو أفق..

- ستجدين من هو أفضل ولا شك عزيزتي..

أحكي لها بضعة أجزاء من حياتي محتفظة بالأجزاء الحساسة والتي لا أضمن نتائج تسرّبها. عندما أصل إلى حكاية معبر سبتة تستوقفني:

- لقد اطلعت على الموضوع في صحافتنا طبعا. لا تخبريني أنك "اللوبا"؟

- إيه يا لاورا.. إنها أنا.. "الديبة".. اللوبا..

- واااو.. إنه شرف لي إذن أجالسك.. كم أحب المرأة الصلبة المكافحة. كنت أحلم أن أكون مثلك دائما لكن أبي ظل يصرّ على أن ترافقني ملعقة الذهب التي ولدت بها في فمي.

- ما يبدو لك الآن شرفاً كان مذلة سابقا. لكن، يخرج الحيّ من الميت..

تطول المسامرة بين وبين لاورا قبل أن نتوادع أخيرا.

أعود لتقريري وأضع عليه آخر اللمسات وأراجعه مراجعة أخيرة. دائما بعد الانتهاء من أي عمل تبدأ الأسئلة..

هل سأحقق فعلا ما أرجوه منه؟ هل سيحدث ضجة كافية للإيقاع بشبكة تهريب القاصرات؟ أم يمر مرور الكرام ولا يلتفت إليه أحد؟

كم من صحافي حلم بأن تغير كتاباته العالم قبل أن يصطدم بواقع مرير قاسٍ. الذين نجحوا في ذلك كانوا قلة. سيبقى النجاح، دائما، استثناءً على أية حال.

عبدو مثلا اختطفه الموت قبل أن يحقق عُشر أحلامه.

أتذكر حديثه معي في آخر لقاء.. ابتسامته.. أمله في الخروج سريعا من أجل إنهاء تحقيقه. كل شيء يختفي في رمشة عين أمام سطوة الموت.

لكن فكرته لم تمت لحسن الحظ وسيواصل تقريره الحياة بعده أملاً في إنقاذ قاصرات لا ذنب لهن سوى قلة ذات اليد وأحلامٍ لا سبيل إلى تحقيقها إلا بالمغامرة التي تصبح كابوسا في وقت لاحق.

إطلالة سريعة أخيرة على التقرير ثم أضغط على زر "أرسل".

فلتبلغ القضية مداها إذن، أو فليطوها النسيان إن لم تجد من يهتمّ.. وكم سيكون ذلك قاسيا.

نُشر التحقيق أخيرا.

سارعت بشرى إلى ترجمة النسخة المنشورة، وأرسلتها لي فبعثتها بدوري لـ"لاورا" كي تضع عليها آخر الرتوشات. كانت سعيدة لأنها تشارك في هذا العمل. قامت بإرسال نسخة من التحقيق لأهم الجرائد بالبلد وجلسنا ننتظر.

أخيرا، تحدث برلماني عن الموضوع في مجلس النواب الإسباني، فكانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير. انطلقت بعدها موجة سخط عارمة أدركنا أنها ستبتلع الجميع.. الشبكة ومن ساعدها ومن فتح لها الأبواب.

كان التحقيق، الذي أصبح متداولا الآن بشدة، يضم حقائق صادمة روتها سناء. كيف يتم استدراجهن بدعوى تصوير فيلم، ثم ترحيلهن نحو إسبانيا قبل أن يبدأ الاستغلال مقابل الأكل والشرب فقط.

تسلب منهن الحرية والإنسانية، مقابل مئات الآلاف من اليوروات التي تذهب لجيوب رؤساء الشبكة وللرؤوس الفاسدة بجهاز الأمن خصوصا.

فتح تحقيق شامل وبدأت تداعياته تظهر في الصحف الإسبانية بشكل يومي. إيقافات بالجملة وتحقيقات شملت كل من كانت له يد في الموضوع.

خرجت فتيات مغاربيات تحكين المآسي التي عشنَها فيما أسمينه زنازين الموت.. غرف صغيرة من بضعة أمتار مربعة يتم تكديسهن فيها، في انتظار طلبات الزبائن. لحم بشري آخر يباع بثمن بخس دراهم معدودة.

ساعدت الأخبار المنتشرة كثيرا في الحُكم على حارس سجن "سالو" بالسجن المؤبد بتهمة القتل العمد في حق عبدو. اعترف زميله أنه كان شاهدا على تغيير وجبة الباذنجان الاعتيادية بوجبة باذنجان من النوع المسموم.

عندما يبدأ إعصار الحقائق تتوارى الأكاذيب جانبا.

تواصلتُ مع والديْ عبدو لأنوب عنهما في جلسة المحاكمة التي رفعها المحامي ضد جهاز الأمن. أقرّت المحكمة تعويضا دسما للوالدين بلغ 300 ألف يورو.

ساهمت الضجة الإعلامية في تسريع كل الأحكام وسط ضغط كبير من الرأي العام أيضا.

تراسلني بشرى هاتفيا داعية إياي إلى العودة، فأطلب منها القدوم.

- ماذا تقصدين يا ليلى؟ سيطردونني لو غبت مجددا عن الوظيفة ولو ليوم واحد.

- ودّعيهم إذن قبل أن يفعلوا..

- ماذا تقصدين؟

- لقد قررت أن أقيم هنا يا بشرى..

- لكن ماذا عن أيمن.. عنّي.. عن طنجة؟

- طنجة تسكنني قبل أن أسكنها، وستظل كذلك. أيمن طبعا سيحضر برفقتك ولا شك.

- ما سبب هذا القرار السريع؟

- يبدو كذلك. لكنه تفكير دام شهورا، منذ تسلمت الجنسية الإسبانية. عزّزه عملي الجديد بجريدة الصباح الذي جعلني أدرك أن هناك مكانا يمكن أن أقدم فيه خدمة لهذا العالم، بدل العطالة القاتلة في طنجة.

- يصعب أن أتدخل في قرارك، لكن ستأذنين لي بالتفكير قبل أن أتخذ أنا أيضا قراري..

- لك ذلك.. فقط اعلمي أنك ستشتغلين معي هنا كمترجمة في المكتب. اقترحت الأمر على السيد هشام ولم يعترض مبدئيا، شرط أن تبدئي كمتدربة قبل المرور إلى المرحلة العملية.

- يبدو الأمر أجمل من أن يكون حقيقيا..

- عديني أن تفكري في الأمر بجدية..

- أعدك.

لاورا تراسلني مستأذنة بالقدوم لمناقشة موضوع هام، فآذن لها.

مرفوقة بكارلا كالعادة تحضر لاورا. تقترح عليّ أن تعد أكلة كطلانية تقليدية فأرحّب.

- هيّا نجرب إعدادها معا..

نبدأ عملية تقطيع الخضروات ولاورا تواصل ما بدأته هاتفيا:

- ما كنت أريد الحديث بشأنه معك هو موضوع يتعلق بعملك..

- وهو..؟

- هل فكرت يوما في إصدار صحيفة خاصة بالجالية العربية المقيمة هنا بإسبانيا؟

- لم تخطر الفكرة ببالي يوما. إسبانيتي ضعيفة، والجيل الجديد من أبناء العرب المقيمين هنا لا يقرأ العربية..

- وماذا لو كانت مزودجة اللغة؟

- هممم.. قد تكون فكرة جيدة. لكنني غير قادرة على حمل هذا العبء الثقيل.

- وماذا لو كان هناك من سيتكفل بكل شيء على أن تمارسي أنت مهامك الصحافية الاعتيادية.. كأن تكوني رئيسة تحرير مثلا..

- لاورا.. اِجلسي.. ضعي الأطباق واختصري عليّ هذه المقدمة في كلمات قليلة..

- حسنا يا ليلى. بصراحة، منذ الضجة التي أحدثها تحقيقك...

- تقصدين تحقيق عبدو رحمه الله..

- ليكنْ. المهم أن تلك الضجة جعلتني أفكر. لم عليك أن تشتغلي كمراسلة فقط، بينما يمكنك أن تؤدي رسالة أكبر بحيث تكونين لسان كل عربي مقيم هنا. أن تغيري الفكرة النمطية عن المهاجرين.. عن اللاجئين.. عن كل من دفعته الظروف للهجرة نحو هذا البلد؟

تسألينني عن الإمكانيات؟ حسنا.. لقد قضيت ليلة طويلة أمس وأنا أقنع والدي بالاستثمار في هذا المشروع، حتى ظفرت منه بوعدٍ شفوي، ثمّ عملي بأن يوفر لنا رأس مالٍ للاشتغال.. وهاهو شيك بـ100 ألف يورو بين يديّ.

ستكونين رئيسة التحرير، بينما ستتكفل صديقتك بشرى بالترجمة، وأنا الجانب التجاري، على أن نوظف عربا آخرين معنا بما تسمح به إمكانياتنا. فما قولك؟

- كل ما قلته جميل لاورا.. لكن، اعذريني على سؤالي: فإن كنت أفهم اهتمامك بالجانب التجاري؟ ما همّك بعرب المهجر؟

- ألم نتحدث من قبل في هذا؟ علاقتي بك كشفت لي أننا أبناء آراء جاهزة. قوالب حشرونا فيها فخرجنا ونحن نكره بعضنا البعض دون أن نعلم السبب حتّى. إن الصحيفة التي سنصدر ستعمل على إلقاء الضوء على جانب آخر للعرب والمسلمين هنا، على الناجحين من أمثالك، المسالمين، الذين أفادوا المجتمع الإسباني ولا زالوا. كما سنعمل، من جانب آخر، على نقل أخبارنا للمهاجرين الذين لا يتقنون الإسبانية كي يندمجوا أكثر في المجتمع..

أسأل نفسي إن كان عليّ أن أتحمّس أم أشعر الخوف؟

أرسلت هذا السؤال لبشرى بعد أن قصصت عليها ما حدث مع لاورا. فكان ردّها:

- ماذا لدينا لنخسره في نظرك؟

حقًا. هل يمكن أن أمُرَّ بأمرٍ ممّا مررتُ به؟ منذ شهور فقط لم أكن أجد ما أسد به رمقي لولا وجود الحاجّة رحمها الله. ثم توالت الأحداث لأجد في الأخير أنني أملك ما يسدّ رمق سنين وأكثر، إثر بيعي للوحة "عويشة الموريسكية".

ثم ها أنا الآن بوظيفة صحافية براتب محترم، بجنسية إسبانية تمنح ما تمنح من امتيازات.

سيكون حملا ثقيلا أن تخاطب كل هؤلاء العرب والإسبان، محاولا أن تكون منصفا. لكنّه لن يكون مهمة مستحيلة على أية حال.

بريدي الإلكتروني يظهر وصول رسالة جديدة من فيدرالية الصحافيين الإسبان تحت عنوان "دعوة". أفتحها متسائلة عن سبب مراسلتهم لي.

"يشرف فيدرالية الصحافيين الإسبان اختياركم لحمل لقب "صحافي السنة الأجنبي"، وذلك نظرا للنتائج التي أسفر عنها تحقيقكم الاستقصائي عن القاصرات المهرّبات من شمال إفريقيا. يسعدنا استقبالك يوم السبت القادم في حفل تسليم الجوائز السنوية بمقر الفيدرالية"

كان الحفل بهيجا جدا. قيل في تحقيقي الكثير. مدحه صحافيون إسبان كبار. أنحني على بشرى ولاورا وأسرّ لهما:

- لو أصابني الغرور الآن فلا تلوموني أبدا.

أيمن يجلس بهدوء وكأنه أدرك أن المقام ليس مقام شغب. وأنا أنهض لأتسلم الجائزة ألقي دعابة أخرى مستحضرة روح عبدو الساخرة أبداً:

- انتبها جيدا. لو كنا في فيلم رخيص فسيأتي من يطلق علي الرصاص الآن لأن تحقيقي دمّر حياته..

تشير لي بشرى بيدها دلالة على أنْ "فأل الله ولا فألك".. أتسلم الجائزة وسط تصفيقات حارة، قبل أن يطلب مني إلقاء كلمة..

- أشكركم جميعا.. أشكر فيدرالية الصحافيين على هذه الالتفاتة الجميلة. أريد أن أذكر أن الجزء الأهم من هذا التحقيق أنجزه الرّاحل عبد الرحيم، الذي أناديه بـــعبدو، وأنا أكملت الجزء الأيسر والأخير فقط. وبالتالي فإن كان هناك من يستحقه فهو عبدو.

وإن كان من فضل لشخص عليّ فهو لوالدتي التي كانت واحدة ممن كان يطلق عليهن الإعلام الإسباني "البغلات"، وأتشرف إنني نجحت في تغيير هذا الوصف إلى "الديبات".

لا زالت هناك مواضيع كثيرة تستحق أن يماط اللثام عليها. وسيكون لها موعد في الجريدة التي سنطلقها قريبا أنا وشريكتي لاورا والتي اخترنا لها اسم "بشرى".

أعود إلى مجلسي وعلى وجه بشرى أرى آثار الصدمة المشوبة بالفرحة. كنا قد قررنا أنا ولاورا أن يكون اسم الجريدة "بشرى"، لكننا أخفينا الأمر عليها.

في البيت تنهال علي بشرى باللكمات وهي تصرخ مازحة:

- كيف فعلتها دون استشارتي. ما الذي فعلته أنا لأحظى بهذا الشرف؟

- فعلت كل شيء يا بشرى. ظاهريا يبدو كأنني لعبت دور البطلة في كل هذا، لكن الحقيقة عكس ذلك. وكما قلت: عبدو ووالدتي وأنت كان لكم جميعا الفضل في كل ما أصبحت عليه الآن. فقط هو بعض الحظ الذي يجعل الأضواء تسطع على البعض دون الآخرين. وأنا كان من نصيبي ذاك الضوء.. لا أقل ولا أكثر.

تغالب بشرى دموعها وهي تحاول أن تبتلع ما قلت في حقها دون أن تبدي تأثّرا واضحا، قبل أن أعفيها من ذلك وأضمها إلى صدري تاركة لدمعها ودمعي أن يمتزجا.

- أين وصلتما أنت ولاورا إذن في خطوات مشروعكما؟

- لحد الآن كل الأمورجيدة. اكترينا مكتبا في موقع جيد وأعلنا عن مباراة توظيف بين العرب الموجودين هنا.سنحاول أن تكون الأسبقية للمهاجرين غير النظاميين واللاجئين. فرصة هي لهم كي يسوّوا أوضاعهم، ولنا كي نستفيد من خبراتهم.

- فرصة أيضا ليعلم الإسبان أنْ ليس كل لاجئ أو مهاجر هو شخص فاشل أو مشروع مجرم. أظن أن العمل بالجريدة سيعلي قدرهم..

- ذاك ما نأمله فعلا.

- بالمناسبة، أعدت مفاتيح البيت لصاحبه ومنحته مبلغا كتعويض على أشهر الكراء المتأخرة كما طلبت مني..

- هكذا نكون قد تركنا أرواحنا فقط بطنجة.. ويا له من شعور..

- سيكون بإمكانك أن تخدميها أفضل من هنا فعلاً يا ليلى.. أكتبي عن مآثرها.. برديكاريس.. فيلا هاريس.. ساحة الثيران.. مسرح سيرفانطيس.. أكتبي عن كل هذا وشجعي على زيارته.. أحيانا، أفضل خدمة نقدمها للمكان الذي نحبه هي بأن نرحل عنه..

- وأنت التي كنت تتلكئين في القدوم إلى هنا..

- إنه فقط الخوف من المجهول.. ليس من السهل أن تغير حياتك بهذا الشكل الكلي.. ناهيك طبعا عن رفض والديّ للفكرة في البداية قبل أن أخوض حرباً ضروسا لإقناعهما..

- أتفهم طبعا. لا عليك.

في الليل، بعد أن نامت بشرى وأيمن. أخرجت جهاز الكمبيوتر وكتبت أولى الكلمات في مشروع أول رواية أنوي أن تكون على شكل سيرة ذاتية:

كل شيء قابل للحدوث.. سيأتي كثيرون ويذهب آخرون..

سيكون هناك ذئاب في الطريق.. الكثير منهم في الحقيقة... لكنهم سيتساقطون جميعا أمام سطوة الكلمة الصادقة وأمام قوّة الحبّ...

(النهـــــــــــــــــاية)